"الرواية الفائزة بجائزة "ساو باولو لأفضل رواية" عام 2008 بالبرازيل"



بيتنا في إزمير

تاتيانا سالم ليفي

ترجمة : رانيا صبري علي

روايات مترجمة

العربي للنشر والتوزيع



بيتنا في إزمير

بيتنا في إزمير

تأليف: تاتيانا سالم ليفي

ترجمة: رانيا صبري علي

تحرير ومراجعة: هدى فضل

مراجعة لغوية: محمد جلال الأزهري

الطبعة الأولى: يناير 2019

رقم الإيداع: 2018/23723

الترقيم الدولي: 9789773194680

60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

تاتيانا سالم ليفي

بيتنا في إزمير

رواية من البرازيل

ترجمة: رانيا صبري علي

العربي للنشر والتوزيع

"تم نشر العمل بدعم من مؤسسة المكتبة الوطنية - وزارة الثقافة البرازيلية".
"Obra publicada com o apoio da Fundação Biblioteca Nacional / Ministério da Cultura do Brasil."

MINISTÉRIO DA CULTURA
Fundação BIBLIOTECA NACIONAL

بطاقة فهرسة
ليفي، تاتيانا
بيتنا في إزمير / تأليف تاتيانا سالم ليفي، ترجمة رانيا صابر علي.
- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع. 2018
ص؛ سم.
تدمك 9789773194680
1- القصص البرازيلية
أ- ليفي، تاتيانا سالم (مترجم)
ب- العنوان 869.3



أكتبُ ويداي مقيدتان. من داخل عزلتي التي لا تتغيَّر، والتي لم أغادرها منذ فترة، أكتب وأنا غير قادرة على الكتابة؛ ولكنني أكتب.

أنا لا أعرف ماذا أفعل. هذا الجسد الذي لم يملك القدرة على الحركة، منذ أن أتى إلى هذا العالم، لأنني وُلدت على كرسي متحرك، بأقدامٍ ضئيلة ويدين ذابلتين.

أنا أتحدث عن ألمٍ أحمله على عاتقي، يؤلم كتفيّ وعنقي، ويمنع رأسي من الالتفات لشهور.

لا أستطيع القول إنه ملكي وحدي، فكل مرة أقول فيها "ألَمي" ما أقصده حقًّا هو "ألَمنا"، أتكلم دائمًا وكأنني بصحبة هذا الألم الذي رافقني منذ اللحظات الأولى، إنه يشلُّني - كأنه عبء - ويمنعني من الحركة، والأسوأ من هذا أنه كالوحش، ليس لديه رحمة، أو كالإسمنت يمنع كل تحركاتي وحركات مفاصلي؛ كأن جسدي قطعة واحدة.

ولكنني لستُ حزينة، وكأنه يهم كثيراً إنْ كنتُ سعيدة أم لا! مع هذا أريد التخلص من الألم - حتى وإنْ كلفني الأمر كل ما بنيته حتى هذه اللحظة - لا أريد أن أبقى وأحدق في أعين "ميدوسا" وأتحول لحجر، وأُلقى في البحر؛ كما في الأسطورة.

الكلماتُ تتهرب مني، قصتي لم تكتمل بعد، ما زالت عضلاتي ساكنة، ما زال المعنى يهرب مني.

ربما، عندما أستطيع أخذ خطوتي الأولى، سأتمكن من تسمية الأشياء؛ وعندها سأكتب.

لا أستطيع تخيل مدى فرحتي، عندما غادرت سريري، لم أتحرك منذ فترة طويلة، كنت أطلب من جسدي التحرك، لا أعلم كم المدة ولكنها قد تكون أيامًا، شهورًا، أو حتى سنين أو حتى طوال حياتي كلها.

في بعض الأحيان أشعر كأنني مكعب، وأحيانًا أخرى أشعر بأنني سحابة. لا أستطيع الشعور بهيئتي؛ أريد الحراك، لا أريد أن أبقى هنا، أنا لستُ واثقة إنْ كان هذا هو القرار الصحيح. عندما تريد الخروج، لا يوجد خيارات بل قرارات، ولكنني لا أستطيع الحكم الآن؛ ما زال الوقت مبكرًا، ولكن ماذا إن أخطأت، وغُصْتُ أكثر في مستنقع انعدام الثقة والدقة؟

لا يوجد ضمانات، ولكنني أعدك بشيء واحد، إذا خاطرت سأكون معك.

لأكتب هذه القصة، يجب أن أغادر هذا المكان، وأن أذهب في مغامرة لأماكن لم أذهب إليها - على الرغم من أنني لم أذهب لأي مكان من قبل في حياتي - لستُ واثقة إنْ كنتُ قادرة على مغادرة غرفتي في يومٍ من الأيام؛ ولكن الرغبة موجودة.

جسدي لا يستطيع التحمل، أصبحت شرنقةً متحجرة، وجهي يبدو عليه الإرهاق، وهالاتي السوداء أكبر مني، وأسناني تعجز عن المضغ، كأنَّ الجاذبية تحُبّني وتسحبني نحوها بقوة مضاعفة.

لا أعلم ما الذي ينتظرني في هذا الطريق الذي اخترته، ولستُ متأكدة إذا كان هذا الخيار صحيحًا ومنطقيًّا؛ ولكنني أبحثُ عن مغزى، عن اسم، عن جسد، ولهذا السبب سأذهب للعثور عليهم، سأذهب إلى مكان لم أعرفه بعد.

وأنا جالسة في مكاني، أمسكت بالصندوق الموضوع على المنضدة، بداخله غبار، وتذاكر قديمة، وعملات، وأقراط، والمفتاح الذي أعطاه لي جدّي: "خذي، هذا مفتاح بيتي القديم في تركيا".

هذا ما قاله جدي؛ عندما أعطاني المفتاح، عجزت عن الفهم وقتها، ولكن، الآن المفتاح في يدي، وما زلت عاجزة عن فهم ما الذي يجب عليَّ فعله: "إن الأمر يرجع لكِ".

هذا ما قاله وكأنَّ الأمرَ لا يعنيه، عندما يتقدم النـاس في العمـر يطلبـون من الناس عمل ما أرادوا فعله طوال حياتهم؛ خوفًا من المـوت دون تحقيـق ذلك الشيء.

والآن يجب علي أن أخلق مصيرًا لهذا المفتاح إذا لم أرد أن أورِّثه لأحد.

لقد خبّأتَه بشكلٍ جيد، وتجاهلت الحديث عن الأمر لأطول فترة ممكنة. وعدتني بأنَّ المرضَ لن يقتلـك، وعـدتني أنـك لـن تمـوت، ووعـدت نفسـك، تمسكت بالأوهام التي اختلقتها لنفسك، ولم تكتفِ بهذا؛ لقد جعلتني أؤمن بها أيضًا.

لقد صدّقتك، لقد صدّقت أنك ستعيش للأبد، لقد بنينـا عالمنـا - الخـالي من الموت - و عشنا فيه. لم نجد القلق فيه؛ كانت لـدينا مسَـلّماتنا الخاصـة، كنت أشاركك كل خيالاتك، جاريتُكَ في لعبتك، لقد تجاهلنا العالم معًـا، وكنـا دائمًا كذلك.





لقد أخفيتَ كل شيء؛ لكنك لم تستطع إخفاء الأمر. في البدايـة، تجاهلنـا بكل بساطة الانتفاخ الذي تكـوّن في بطنـك، وحنجرتـك المتورَّمـة؛ ولكننـا لم نستطع تجاهل ذلك، لقد أُجبرنا على رؤية مـا لم نـرد أنْ نـرى. تكـوَّن لـديك بطنُ امـرأة حامـل، وانتفـاخٌ ظـاهرٌ في العُقَـد اللمفاويـة، وأسـفل ذراعيـك، وفخذيك، لقد كنت تتعب من أقل مجهود وتتقيأ دمًا، كل هـذا دمّـر عالمنـا الخيالي الذي عشنا به، لم نستطع العيش فيه بعد اليوم.

لقد كنت جالسًا على أريكتك، عندما اقتربتُ منك، وقلت لك: "لا تقلق!".

إذا كنت ستغير العالم الذي تعيش به، سأذهب معك، لا يهمَّنـي إلى أيـن سنذهب؛ سأذهب معك، وسنصنع عالمنا الخاص مرةً أخرى، وأخرى، وأخرى، سنمضي الأبدية في صنع عوالمنا الخاصة لا يهمني ما دمنا معًا.



لم أفعل أي شيء بالمفتاح غير أنني تفحّصتُه مرارًا وتكرارًا. حفظت كل تفاصيله عن ظهر قلب: لونه، وشكله، ووزنه. أشك في أنَّ مفتاحًا بهذا الحجم قد يفتح بابًا، أظن أنهم غيَّروا القفل، سيكون من الحماقة تركه كل هذه المدة كما هو، وأنا متأكدة أن حتى جدّي يعلم ذلك، أظن أنه فقط يشعر بالفضول لمعرفة إذا ما كان ما تركه وراءه ما زال كما هو.

يبدو الأمرُ جنونيًّا، أن تترك بلادك وكل شيءٍ خلفك، وعائلتك أيضًا؛ و تذهب إلى مكانٍ جديد؛ لا تعرف عنه أي شيء، بلا ضمانات.

لقد أخبرني أنَّ السفينةَ التي سافر عليها كانت ضخمة، كانت هي مرّته الأولى والوحيدة على سفينة كهذه، وكانت هي مزدحمةً بالركّاب. جميعهم لديهم هدف مشترك، وحياة أفضل في بلدٍ جديد.

كان أول الواصلين بين إخوته، مع حقيبتين فقط، وعدد قليل من جهات الاتصال في البرازيل. في العشرين من عمره غادر تركيا، وانضم له شقيقه الأصغر في وقت لاحق، وتوفيت شقيقته بعد إصابتها بالسل، وقرر أخوه الأكبر أن يتزوج ويبقى في "سميرنا" - المعروفة حاليًا بـ"إزمير". رأى أمه مرةً أخرى في وقت لاحق، عندما ترمّلت وقرَّرتِ الانتقال إلى البرازيل، ولم يقضِ معها الكثير من الوقت لأنها رحلت هي الأخرى.

كم مرة سمِعتُ هذه القصة؟ لم يستطع رؤية أبيه وشقيقته مرة أخرى، ولم يستطع وضع قدمه مرة أخرى في الأرض التي كانت ملكه منذ البداية، لقد عانى الفقر على السفينة، وفي الأرض التي تركها خلفه، ما الذي يريده منّي الآن؟ أنْ أستعيد تاريخه وماضيه؟ وما الغرض من هذا المفتاح وهذه المهمة الجنونية؟



- القصة ليست ملكه وحده، الحياة لا تنتمي لشخصٍ واحد، إذا أعطاك المفتاح؛ فذلك لأنه يظن أنه جزء من قصتك أنت.

- ولكن يا أبي إنه لن يفعل أي شيءٍ دون سبب، كان بإمكانه إعطاء المفتاح لي أو لأحد إخوتي؛ لكنه لم يفعل ذلك.

- لم أذهب قط إلى تركيا، والآن لا أستطيع القيام بذلك، سمعت فقط قصصه عن القدوم إلى البرازيل عدة مرات.

- أنا لا أقول إنَّ هناك مصيراً، مهمة لا يمكن لأحد القيام بها غيرك. كما تعلم، لا يوجد الكثير من المتشككين مثلي؛ ولكنني لا أظن أنه يجب علينا رفض الأشياء التي يقدمها لنا النّاسُ، منذ متى وأنتِ مستلقية في هذا السرير؟ ربما يكون هذا سبب لفعل شيء جديد، وترك السجن الذي

صنعته هذه الغرفة، وزيارة بلد لم تذهبي إليه من قبل، آمني بهـذه القصـة التي يقـدمها جـدُّك. اذهبـي إلى منزلـه وحـاولي فـتح البـاب، واروي قصـته وقصتي أيضًا. اعتبريها فرصة للخروج من الحفرة التي حفرتها لنفسك، حتـى لو لم تـؤد إلى أي مكـان، حتـى إذا لم تجـدي المنـزل أو العائلـة التـي بقيـت فيهما، لا يهم، على الأقل سترين محيطًا جديدًا، رغم أنه قديم جدًّا.





بدت كحزمة سوداء، عندما أتت لرؤية ابنها، الحجاب، واللباس، والحذاء، والهالات السوداء أسفل عينيها، والفم، كل شيء أسود. كانت ترتدي ملابسها كما لو كانت ذاهبة إلى جنازة، بدا والده أكثر استرخاءً. كـان يرتـدي ملابسـه اليومية: قميصًا من الكتَّان أدخله في سرواله؛ ولكـن حزامـه الأحمـر لم يكـن متطابقًا مع حذائه البني.

تعبيرات وجهه تقول إنَّ هذا مجرد يوم مثل أي يوم آخر، على الـرغم مـن أنه كان يعرف أنه يوم مختلف جدًّا. كان الأمر كما لو كان البيـت كلـه يعـرف ذلك؛ لكنه لم يقل، ليس فقط والداه وأشـقاؤه، بـل أيضًـا السـقف، والجـدران، والأطباق غير المغسولة، وغرفة المعيشة الأنيقـة، الوسـائد البرتقاليـة في أماكنهـا على الأريكة؛ واحدة على كل مقعد. غرف النوم لا تزال مظلمة.

في هذا اليوم، كان كل شيء، وكل شخص يحمل ألمًا غير معلن، خوفًا غير معلن، فزعًا غير معلن، كان الصمت قاتلًا، كأنه يرجوهم أن يبقوا.

وقفوا في طابور وفقًا لأطوالهم؛ أولًا: شقيقه الصغير، ثم شقيقته التوءم، ثم شقيقه الأكبر ثم والده.. أطولهم جميعًا، وأخيرًا، كاسرة التتابع، والدته.

كان الباب لا يزال مغلقًا وكان المنزل مظلمًا. كان هناك ضوء من المصباح، وتوهج أصفر يدخل من خلال نافذة المطبخ، ظلوا واقفين، محدقين بجدار غرفة المعيشة، لم ينظروا أو يتحدثوا إلى بعضهم بعضًا.

عندما دخل الغرفة، لم يكن مندهشًا لرؤية عائلته، وعرف أنَّ وقتَ الوداع قد حان. حمل حقيبة في كل يد، ومعطفًا على ذراعه اليمنى. نظر حوله باهتمام، وكأنه يريد أن يسجل في الذاكرة التكوين الكامل للمنزل، وموقف كل كائن. كان خائفًا من النسيان. بعد كل شيء، لم يكن يريد حقًّا أن يغادر، لكنه كان بحاجة إلى تجربة حياة جديدة في مكان ما؛ يمكن أن يزدهر. كان هناك أيضًا الجيش إذا لم يغادر تركيا، فعليه أن يخدم، مثل شقيقه الأكبر. لذلك كان متوجهًا إلى البرازيل، حيث كان لديه أبناء عمومة، وأصدقاء. وقالوا جميعهم إن: "الأمور جيدة هنا؛ وهناك الكثير من الطرق لبناء حياة كريمة. تعال، إنهم بحاجة إلى شباب يتمتعون بالقدرات البدنية، مثلك".. "نعم انتظرني أنا قادم".

"سأجرب حظي في البرازيل".

أخبر والديه.

بدت أمه تائهة. منذ تلك اللحظة، لم تتحدث كلمـة أخـرى لابنهـا، أو إلى زوجها، كما لو كانتْ تلومه. إنها بالكاد أكلت، بالكاد نامت. لكنهـا لم تمنعـه. كان يعرف والدته، ولم يتوقـع رد فعـل أكـثر اعتـدالًا. وهـا هـو الآن، يمسـك بحقائبه، ويستعد للوداع.

اقترب من شقيقه الصغير، ووضع حقائبه على الأرض، ثم رفعه في الهواء. كانت الكلمات التي قالها له حلوة، كما ينبغي أن تكون كلـمات الأخ الأكـبر. مع أخته لم يكن مختلفًا؛ إلا أنَّ الدموع على وجهها جعلته يبكي أيضًـا. لكنـه لم يستطع التراجع والاستسلام للألم وإلا فلن يكون قادرًا على الاستمرار. عانق شقيقه الأكبر، وكان دوره للاستماع إلى بعض النصائح. قـدَّم لـه والـده بعـض النصائح أيضًا؛ ولكن بنبرة أكـثر صرامـة. قـال لـه أن يكـون جيـدًا؛ أن يقـاوم خطايا الجسد والشراب. العمل بجد، مثـل عضـو جيـد في الأسرة؛ وقبـل كـل شيء، "تذكر أن تكتب".





أتذكر ذلك جيدًا، كنت تحمل بعض الكتب تحت ذراعك، وحقيبة جلدية فاتحة اللون في يدك، وسرنا معًا في الممر في الطابق السادس، نظرنا إلى بعضنا بعضًا مباشرةً، ثم أشحنا أنظارنا بعيدًا في خجل، ولكننا كنا قد أسرنا بعضنا بعضًا بالفعل، استعدادًا لما هو آتٍ، لكنني لستُ متأكّدة إنْ كنتَ نظرت خلفكَ بعدما افترقنا أم لا.

شعرت بوخزٍ لا أستطيع وصفه؛ ولكنني لم أتابع المشي إلا لأنَّ جسدي كان يدفعني لأمشي. لا أستطع الحراك، استحوذ عليَّ شعورٌ لا أستطيع وصفه مهما حاولت.

لقد مضى بعض الوقت قبل أن نلتقي مرة أخرى، أنا لا أعرف بالضبط كم من الوقت مضى، ولكن على أية حال ليس طويلًا بما فيه الكفاية

ليغادر الوخزُ جسدي، تلك الحكَّة التي يشعر بها الإنسانُ لمرات قليلة في الحياة، والتي تأخذك على حين غرة؛ ولكنها تُشعرك بأنها كانت تَتَرصَّد بك طوال الوقت.

وفي الطابق الأرضي، عندما كنت متوجهًا إلى محطة الباص، شعرت وكأنني أطفو، كطفل يرقص على أغاني الأطفال. لم أشعر بهذا منذ فترة طويلة، لم أكن بحاجة إلى أي شيء آخر، لم أكن في حاجة إلى معرفة من أنت، وما فعلته، ومن أين أنت، وإذا ما كنت في علاقة ما. علقتْ نظرتُك ببالي قبل أن أعرف اسمك حتى، وهذا كافٍ بالنسبة إليَّ.





ولدت في المنفى.

في البرتغال، البلد الذي أُجبرت عائلتي على تركه منذ قرون لأنهم كانوا يهودًا.

في البرتغال - التي منحت والدي حق اللجوء - عندما طُرد من البرازيل لأنهم كانوا شيوعيِّين. لقد عدنا إلى حيث بدأنا.. وكأننا على مسار دائري؛ من البرتغال إلى تركيا، ومن تركيا إلى البرازيل، ومن البرازيل إلى البرتغال.

ألنْ تكون الرحلة أقل مشقة - وأقل مرارة - إذا لم نكن مضطرين للقيام بهذه الرحلة الطويلة؟ لماذا اضطررنا للرحيل إلى مكان ما فقط لنعود إليه مرة أخرى؟

لقد ولدتُ في المنفى - خارج بلدي - في يوم شتاء بارد. ساعتان من الطلق دون نتيجة، لأنني ما زلت لم أتحرك ولم يكن إخْصَائي التخدير

موجودًا، عانتْ أمّي مِنْ الولادة، وعندما أتيتُ إلى العالم، لم تستطع أنْ تمسك بي بين ذراعيها، لأنها خضعت لتخدير كامل، والأسوأ من ذلك أنها عندما استيقظت، أدركت أنهم مزقوها، ستحمل إلى الأبد ندبة ولادتي، وهي خط فراغ مستقيم ما بين عانتها إلى الثديين.

لقد ولدت في المنفى، ولهذا السبب أنا على الطريق، دون وطن، دون اسم.

هذا هو السبب في أنني صلبة، وغير مصقولة، وخشنة.

لقد وُلدت بعيدًا عن نفسي، بعيدًا عن أرضي. من أنا؟ أي أرضٍ هي أرضي؟





هـا أنـتِ ذا تـروين عـبر منظـور الألم، هـذا لـيس مـا قلتـه لـك، لـيس بالضروري أن يكون المنفى مليئًا بالمعاناة - في حالتنا لم يكـن الأمـر كـذلك - عملتِ مراسلةً لمجلة في البرازيل، وأبوكِ بقـي مـع الحـزب، كنـا في البرتغـال، نأكل جيدًا، ونتحدث بلغتنا الخاصة، ونلتقي الناس، ونعمل، ونلهو.

أجدادك جاؤوا لزيارتنا، جاء الكثير من الناس للبقاء.

كنا دائمًا مسافرين: باريس، فلورنسا، مدريد، أثينا، كييف.

صحيح، في بعض الأحيان كان غموض مستقبلنا مثِقلًا، هل سنعود إلى البيت؟

ولكن في أعماقنا، أدركنا أنَّ الأمور ستتغير في البرازيل؛ ولكننا لم نعرف متى.

لا يا فتاتي العزيزة، لم تكن الأمـور بالطريقـة التـي وصـفتها بهـا، عنـدما وُلدتِ، لم يكن الجـو بـاردًا أو رماديًـا، لم أعـانِ في أثنـاء ولادتـك، لم يعطـوني مخدرًا، وليس لـدي ندبـة، أنـا أنجبتـك بشـكل طبيعـي، لقـد حملتـك فـور ولادتك، لقد كنت محبوبةً.

عندما تم إعلان العفو، لم أكن أرغب في العودة. كنتِ صغيرة جدًّا وكنتُ أفضِّل البقاء لبضع سنوات أخرى؛ لكن والدك ما زال يؤمن بالحزب، إنه يظن أن التغيير ممكن، لذا عدنا، لنثور. لم أجد كل هذه المعاناة التي تتحدثين عنها، بالعكس، كان هناك الكثير من الإيجابية وإرادة هائلة للعيش.





لقـد حجـزت تـذكرتي بالفعـل، ولـدي بعـض الوقـت لأحضر حقـائبي، سأذهب إلى تركيا أولًا ثم إلى البرتغال.

لستُ بحاجة للقلق بشأن الملابس الثقيلة، فنحن في فصـل الصـيف، إن تحضير الأمتعة هو مزيج من الإثارة والقلق.

"سأسافر"، قلت لنفسي، ثـم تملكنـي القلـقُ عـلى الفـور أنَّ شـيئًا خاطئًـا سيحدث، ثم عادتْ نشوةُ المغادرة، قضيت الأيام في تحضير وتفريغ حقيبتي، حيث كانت مشاعري تتأرجح ذهابًا وإيابًا. في بعض الأحيان كنت أظن أنني سأبقى لفترة أطول من المخطَّـط لهـا، وبالتـالي أضـع الكثـير مـن الملابـس في الحقيبة، وفي بعض الأحيان أظنُّ أنني لن أكمل حتى خمسـة أيـام، وبالتـالي أخرجهم من الحقيبة مرة أخرى.

لم أسافر هكذا من قبـل؛ لتحقيـق غايـة؛ ولكننـي بعـد أن اسـتمعت إلى جدي، وبعد أنْ فكرت بالأمر؛ قررت قبول التحدي.

على الأقل قد أجد بعض المعنى لألمي؛ بل قد أجـد طريقـة لتحريـر نـفسي من ذلك، كنت أرغب في المشي مرة أخرى، لأجد طريقي، وقد صدمني منطـق أنني إذا تتبَّعتُ الطريق الذي سلكه أجدادي، سأكون حرة لاكتشاف نفسي.

في اليوم الذي غادرت فيه اضطررت إلى الحصول عـلى المسـاعدة لإغـلاق حقيبتي، على الرغم من أنني قمت بطيَ قمصاني وبناطيلي أكثر مـن الـلازم. ولكـنْ حقـائبي كانـت محشـوة بـالملابس، مـن الأفضـل أن نتـوخى الحـذر، جلست على الحقيبة بينما يغلقها صديق لي.

قال مازحًا:

- هل ستبقين هناك للأبد؟

أجبته:

- من يدري.





عندما دخل الطبيب الغرفة، كان يحمل جرَّة بداخلها جسم غريب إسفنجي، تقريبا بحجم البطيخة الصغيرة. نظرنا إليه طويلًا، في انتظار أن يقول شيئًا، ولكنه ابتسم، ابتسامة مليئة بالسخرية والرضا، وقال معلنًا:

- هذا هو طِحالُكِ.

قلتُ متفاجئة:

- هذا الشيء؟ وما الذي يجعلك تظن أنني أرغب في رؤيته؟

قال:

- لأنه طحالك.

لم أستطع إبعاد عيني عن الجرَّة، ظللتُ أحدِّق فيها بمزيج من الاشمئزاز والانبهار، كنت أنظر إلى عضـو- عضـو مـريض، وكـان طحالـك - ومـع ذلـك، عندما نظرتُ، كنت ما تزالين هناك، على قيد الحياة.

- أنتِ لم تكوني بحاجة إليه لتبقي على قيد الحيـاة، انظـري إلى حجمـه، عادة ما يكون حجم الطحال 12سم، وكان حجم طحالك 30 سم.

- عيناك منتفختان.

- هل هذا صحيح؟

اقترب الطبيب أكثر ومعه الجرة؛ ولكنَّكِ نظرتِ بعيدًا.

- هذا يكفي من فضلك، لا تكن مُصرا.

أخبرنـا الطبيـبُ عـن الجراحـة، وعـن الإجـراءات اللاحقـة للعمليـات الجراحية؛ ولكنني لم أستطع إبعـاد عينـي عـن الطحـال، كـان طريًـا للغايـة ورخوًا.

قبل شهر من ذلك، قال لكِ الطبيب:

- ستحتاجين إلى عملية جراحية. طحالك منـتفخ جـدًّا، والخلايـا الخبيثـة بدأت في الانتشار.

- ولكن كيف سأعيش دون طحال؟

- يمكن لأي شخص العيش دون طحال، إنه عضو عديم الفائدة.

- إذا كان بلا فائدة؛ فلماذا نمتلكه؟

لم يجب الطبيبُ، وأخذ يدوِّن تاريخ العملية، وعنوان المستشفى في مفكَّرته.

عندما غادرنا المستشفى، قلتِ:

- لم أخضع لعملية جراحية من قبل، أنا خائفة.

- استرخِ، ألم تسمعي الطبيب؟ ستكون عملية جراحية بسيطة، دون أيٍّ مخاطر، وستشعرين بتحسَّنٍ كبير بعد الانتهاء منها.

كلما تحدثت أنظر الى بطنك، وذلك الانتفاخ بداخلها.

- أعلم؛ ولكنني خائفة على أية حال.

- سيكون لديكِ الوقت لتحضير نفسك، لا تعطِ الأشياء أكثر من حجمها، وثقي بالطبيب، إنه يعرف ما يفعل. إذا قال إنك تستطيعين العيش دون الطحال، وإنها عملية بسيطة وستشعرين بالتحسن بعدها، صدقيه.

عندما وصلنا إلى السيارة، كنت تتعرَّقين، سألتكِ:

- هل تريدينني أن أقود؟



لقد كان شهرًا طويلًا، كل يوم فكرنا في الأمر وتحـدثنا عنـه، مـلأ الخـوفُ أنحاء الشقة، كل صباح القلق نفسه، والخوف نفسـه. تمنينـا أن يمـر الوقـت بسرعة، وألا يمر على الإطلاق.

كنت تسألينني كل صباح:

- ما هو اليوم؟

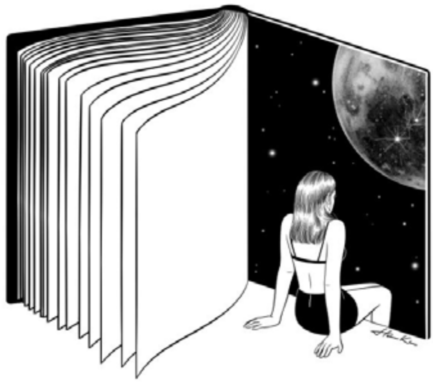
- توقفي عن القلق كثيرًا يا أمي، استرخِ، ستكونين بخير.

وتجيبينني مثل الصدى:

- أجل سأكون بخير، سأكون بخير.

لم يخطر ببالي قط أن الجراحة قد لا تسير على ما يرام، كان الطبيب متفائلًا للغاية، وهو يشرح مدى بساطة الجراحة، وأنا صدقته، كان الخوف البادي على وجهك السبب في تفكيري بالأمر.





كل ليلة كنت أحلم بِمِشْرط يقطع جسدي، كـانوا سـيأخذون قطعـة مـن جسـدي، وكنـت أخشى أننـي لـن أسـتطيع العـيش دونهـا، وكنـت أخشى أن يقطعونني في المكان الخطأ، وأنهم لم يجدوا طُحالًا، وأنهـم قـاموا باستئصـال عضو آخر، وأنهم لم يتمكنوا من إغلاقي مرة أخرى.

♒♒

غادرنا الشقة في وقت مبكر جدًّا. كان علينا أن نبكر حتـى يتمكنـوا مـن البدء في إعطائها الأدوية، والتأكد من صيامها.

في اللحظة التي وطأتْ فيها أقـدامنا الممـر، أدهشـتنا رائحـة المستشـفى البارد. كانت يداكِ متعرَّقتينِ من شدة القلق؛ ولكن يظن كل من ينظر إليـك أنك هادئة.

وصل أبي، و شقيقتك بعد فترة وجيزة.

أولًا، جاءتنـا ممرضـتان، وبعـد أن عرَّفتـا بنفسـيهما، قامتـا بإمـدادك بالمحلول.

جلسنا للتحدث قليلًا في محاولـة لتخفيـف الجـو، ولإعطـاء اليـوم بعـض مظاهر الحياة الطبيعية. تحدثتْ شقيقتُك عن العمل، وتحدث أبي عن أشياء في الأخبار، واستمعنا أنا، وأنت؛ أكثر مما تحدثنا، وبعـد نحـو سـاعة ونصـف وصل الطبيب، وعلى شفتيه الابتسامة نفسها التي ابتسـمها لنـا في كـل مـرة رأيناه فيها.

- كل شيء جاهز، يجب ألا تستغرق الجراحة أكثر من ساعة، أو سـاعتين على الأكثر.

لم تستوعبي كثيراً مما قاله الطبيب، فقد بدأ مفعولُ المخدَّر بالتأثير عليكِ.

- أولًا، سوف نستخدم مخدرًا كليًّا، ثم سنقوم بالفتح وإزالة الطحال، إنَّ الأمر بسيط للغاية.

عندما تم نقلك إلى غرفة العمليات على النقالة؛ كنت تتمتمين بكلام غير مفهوم، كمن يتحدث في نومه.

أمسكت يدك حتى اضطررت إلى تركها عند وصولك لغرفة العمليات، يؤلمني كثيرًا تركك وحدك؛ لكنني أثق في كلام الطبيب.

عدت إلى الغرفة، حيث كان أبي، و شقيقتك. قال أبي:

- لنذهب إلى الطابق السفلي لنأكل.

قضينا أكثر من ساعة في مطعم؛ يقع في الشارع نفسه الذي يقع به المستشفى. تحدثنا عن كل شيء غيركِ، بينما كان الطبيب يقوم بإخراج طحالك. قلتُ:

- يجب أن نعود، أظن أنهم انتهوا.

عندما وصلنا إلى المستشفى، انتظرنا لبعض الوقت قبل أن يخبرونا بأنَّ كل شيء يسير على ما يرام؛ ولكنَّ الجراحة أخذت وقتًا أكثر من اللازم.

بعد ساعة، كاد قلبي يخرج من مكانه، عندما أحضرتك الممرضات إلينا؛ على النقالة، كنت تحت تأثير المخدر.

سألتها:

- هل أنتِ بخيرٍ يا أمَّي؟

حاولتِ التحدث؛ ولكنني لم أفهمكِ.

قالت إحدى الممرضات:

- إنها تطلب شخصًا باسم "حياة"، هل أنت "حياة"؟

قلتُ وأنا قلقة من نسيانك لاسمي:

-لا.

قلتُ:

- أمي، هذا أنا، ألا تستطيعين التعرف عليَّ؟

لم تقولي سوى:

- "حياة".

سألتك معتقدة أن "حياة" هو اسم شخص:

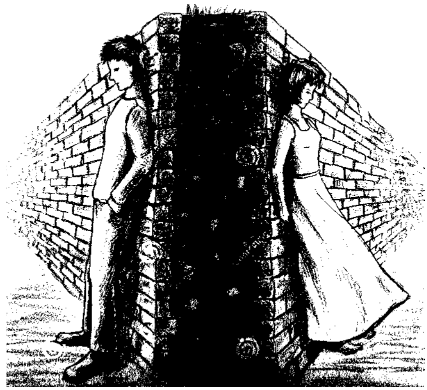
- من هي "حياة"؟

ولكنك كنت تنادين الشخص ذاته:

- "حياة".. "حياة".. "حياة".

وفجأة فهمت ما كنت تقصدينه، لقد كنت تثبتين للعالم أنك على قيد الحياة، "أنا على قيد الحياة!"، عندها فقط فهمت مدى خوفك، عندما تركت يدك لتدخلي إلى غرفة العمليات، هذا ما شعرت به، لم أفهم، لم أشعر بخوفك، لم يخطر ببالي أن شيئًا قد يحدث، كانت مجرد جراحة لاستئصال طحالك، عندها فقط أدركت أن "حياة" لم تكن شخصًا.

إنَّ خوفك لم يكن مجرد خوف عادي.. بل كنت تخافين من الموت.



في المرة الأولى التي خرجنا فيها معًا لشرب البيرة، كنت أعرف بالفعل ما ينتظرني، كنا في "بار" في مكان ما في "بوتافوجو"، لم نكن نعرف بعضنا بشكل جيد؛ ولكنني كنت مسحورة بالفعل.

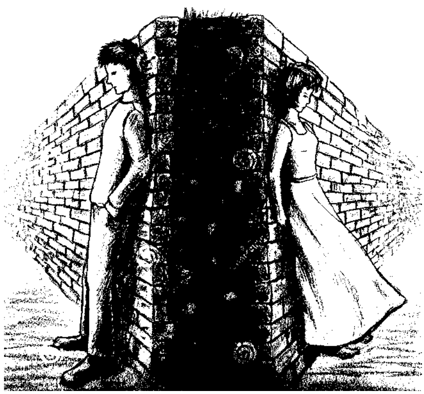
لم أستطع التفكير في أي شيء آخر، سوى جسمك، وصوتك، ومشيتك، وحركاتك، وملابسك.

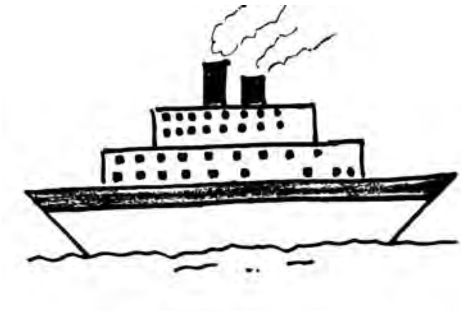
قلت إنك معجب بي، وإنك لم تعجب بشخص آخر هكذا منذ زمن، شربنا بيرة تلو الأخرى، واستمعت إلى كل كلمة قلتها، وشعرت بأنَّ جسدي ينهار؛ من الخوف، والرغبة، والسعادة.

لقد نطقت كل كلمة بشغف يدفعني للإيمان بكَ، ولكنْ في الوقت ذاته نظرت إلى عينيك، وفهمت كل شيء؛ أنت لن تحبَّني بالطريقة نفسها التي

سأحبك بها، كنت أعرف من البداية أن حبي لك سيكون دائمًا أكبر من حبـك لي، ونتيجة لذلك، كنت أعرف المعاناة التي كانت تنتظرني.

لقد كان موعدنا الأول، وكنت سعيدة جدًا كوني جالسة بجانبـك، بالكـاد اتسع جسدي لهذه السعادة؛ ولكنها كانت ممتزجة ببعض الألم، كأنني رأيت في عينيك كل السعادة، والبؤس الذين كانا في انتظارنا.





كان على متن السفينة عندما شعر بضيق في صدره من القلق، هو الوحيد الذي يعرف سبب مغادرته. يمكنك دائمًا توفير حياة أفضل بغض النظر عن مكان وجودك؛ ولكن لا يمكنك الهرب، لكي تهرب تحتاج للصعود على متن سفينة، والإبحار لعدة أميال، خاصة إذا كان سبب هروبك هو الحب.

كان يسافر في الدرجة الثالثة، وكان سريره صغيرًا جدًّا، والهواء رائحته كريهة منذ بداية الرحلة؛ ولكن الرائحة لما تكن أسوأ ما في الأمر فهناك: الغرباء، وصراخ الأطفال، والسكارى.

والحق يقال، إنه لم يكن مقتنعًا بقرار بدء حياة جديدة، والأسوأ من ذلك أنه سمع أنَّ شوارع البرازيل تعج بالفئران، والصراصير والحيوانات البرية، والقمامة المنتشرة في كل مكان، والجو شديد الحرارة بحيث يصعب عليك التنفس؛ ولكنه اختارها لأنه لديه أبناء عمومة، ومعارف، وأشخاص يمكنهم مساعدته هناك.

فهو لم يستطع البقاء في "إزمير".

قام رجل عجوز بوضع متعلقاته على السرير بعبوس، لإخبار الجميع بأنه لا يريد التحدث. أظن أن هذا أمر جيد؛ لأنه لم يكن في مزاج للتعرف على الآخرين، فقد فضّل البقاء مع نفسه، مستلقيًا على سريره مع أفكاره.

كان اسمها "روزا" عندما اكتشف والدها أنها، وأحد موظفي متجره كانا يتبادلان النظرات، وبالتالي لم يتردد في اتخاذ إجراءات صارمة. لم يُسمح لـ"روزا" بمغادرة المنزل إلا بصحبة شقيقها الأكبر، والذي كانت وظيفته ضمان ابتعادها عنه. تم طرد جدي.

- اخرج، اذهب للحصول على وظيفة في مكان آخر، ويفضل أن يكون بعيدًا عن مؤسستي، وبيتي، وجواري، وبلدي.

ظل يبحث عن وظيفة أخرى لعام كامل؛ ثم قرر الأخذ بنصيحة رئيسه السابق، الآن فقط، عشية زواج "روزا" مِنَ الشاب الذي اختاره والدها لها.

في حقيبته كانت الخطابات القليلة التي تبادلها معها في اللحظات القليلة التي كانا فيها وحدهما، حتى ولو لبضع ثوانٍ سريعة.

عندما سمع عن خطبتها، ظل لبضعة أيام في غرفته حتى قرر المغادرة إلى بلد بعيد، قبل مغادرته إلى البرازيل، أعطى لها رسالة أخيرة، مقسمًا فيها أنَّ حبهما أبدي.



عندما وصلت إلى إسطنبول، كنت أحمل جواز سفري البرتغالي بدلًا من البرازيلي، لظني أن ذلك سيكون أفضل.

كان هناك طابور طويل أمام مكتب الشرطة الفيدرالية، الأتراك على جانب واحد، والأجانب في الجانب الآخر.

عندما حان دوري سمعت:

- أنتِ بحاجة إلى تأشيرة.

- ماذا؟

- إنه القانون، يحتاج المواطنون البرتغاليون إلى تأشيرات دخول.

- لكنني لست برتغالية، أنا برازيلية، لا بل أنا تركية، جدي من هنا وأجدادي كذلك، ألا أبدو تركية؟ انظر إلى أنفي الطويل، وفمي الصغير، وعيني الزيتية، أنا تركية.

قال الضابط:

- أنتِ بحاجة إلى تأشيرة.

لم أجادله أكثر من ذلك فهو لن يقتنع. لن أقنعه أبدًا.

هل أنا بحاجة إلى تأشيرة لدخول بلد أسلافي؟ لقد وُلدوا هنا، ونشأوا هنا؛ ألم يكن الأمر كذلك.

لدي تأشيرة سياحية لمدة ثلاثة أشهر؛ ولكن لا أستطيع العمل، فأنا لست تركية.





أصابك العمى في عين واحدة. قال الطبيب:

- لا يوجد شيء آخر يمكنني القيام به، إذا كان لديك المال الكافي جرب العلاج في الولايات المتحدة، ربما يمكنهم منع المرض من التقدم هناك.

لم نتردد للحظة. خلال يومين كنا هناك بالفعل.



ملأت الطحالب جدران الغرفـة، بالإضـافة إلى الرائحـة الكريهـة والعفـن الذي أحال كل ما في الغرفة إلى اللـون الأخضر. كـل شيء يتـداعى؛ الجديـد قبل القديم، وفي وسط الغرفة يكمن فـراشي الخشـبي المـتعفن، أنـا لا أعلـم كيف لا يزال قائمًا حتى الآن. وفي منتصـف السريـر يكمـن جسـدي، مغطـى بجروحٍ حديثة مفتوحة، وكدمات. وفوق جسدي توجد الآلـة الكاتبـة، تكـاد تختفي الحروف من مفاتيحها، فقد تلاشى حبرها تقريبًا.

ويداي الداميتان، تكتبان هذه الكلمات حرفًا تلو الآخر.



غادرت المطار، وأنا ما زلت غاضبة، بسـبب حـاجتي إلى تأشـيرة دخـول. أعتقد أنه من الأفضـل أنْ نـنسى الأمـر برمَّتـه؛ لكـن عـدم الاعـتراف بهجـرة الأتراك لن يؤثر على حبي لتركيا، لربما كانوا على حـق في أننـي لسـت تركيـة حتى، وربما لم يكن لدي أي سبب لأتواجد هنـاك، يمكننـي أن أكـون سـائحة فيها كأي دولة أخرى، وأتجوَّل في المساجد، وأبحر في نهـر"البوسـفور"، وآكـل لحم الضأن، وأزور القلاع والمتاحف، وأشتري السجاد، والجلود، والتوابل مـن السوق الكبـير، وأطلـب مـن النـاس في الشـارع التقـاط صـورٍ لي، وأن أقـول "cheese" في الوقت المناسب لالتقاط الصورة. سـأكون أكـثر السـياح غرابـة؛ أسأل الناس عن كل شيء، وأضحك على أشياء غير مضـحكة، وأقـوم بجـولات سياحية وأشاهد المدينة من "الباص" وأنتبه إلى كل ما يقوله المرشد، وأذهـب إلى المطـاعم، حيـث الراقصـات، ونسـاء مفعـمات بالحيويـة، ثـم أعـود إلى البرازيـــل؛ وأدعـــو أصـــدقائي لمشـــاهدة الصـــور. ســـأحكي للجميـــع عن جمال تركيـا، وأننـي لم أتخيلهـا نهائيًّـا بهـذا الجـمال، والقصـور الهائلـة، والمسـاجد. سـأخبر الجميـع بـأنني لم أرَ شـيئًا مختلفًـا كهـذا مـن قبـل،

إنه مزيج من الثقافات الشرقية والغربية. سأخبر الجميع أنَّ معظم النساء يرتدين أغطية الرأس أو الحجاب، وأنَّ الرجال يتوقفون عن العمل عندما يسمعون الأذان. سأخبر الجميع أنَّ المدينة كانت قذرة قليلًا؛ ولكنها آمنة للغاية؛ لم يكن عليك أن تقلق بشأن الخروج؛ والكاميرا متدلية من رقبتك، أودُّ أنْ أخبرهم جميعًا أنَّ إزمير مدينة جميلة، ويجب عليهم زيارتها.

أجمل مدينة رأيتها في حياتي.

أمسكت بورقة عليها اسم الفندق في يدي، للعثور على توصيلة ولأنني رفضت عروض السائقين الواقفين أمام المطار. تَمَشَّيْتُ للعثور على تاكسي بنفسي، وبعد المشي لمسافة، رأيت صفًا مِنَ السيارات. هناك، أريتُ اسمَ الفندق لأحد السائقين، الذي أراني، بدوره، السيارة التي ستأخذني إلى وجهتي، لم أكن بحاجة إلى القيام بأي شيء، وضع الرجل الذي أريته قطعةَ الورق، سائق التاكسي حقيبتي في السيارة.

كان المطار بعيدًا عن الفندق، بدأ الصمت يزعجني.

سألت السائق:

- هل تتحدث الإنجليزية؟

أجاب بلكنة ثقيلة.

- قليلًا.

شعرت أنَّ المحادثة لن تطول ولأكون صادقة، لم يكن لدي أي شيء لأقوله.

سألني لاحقًا:

- هل هذه مرّتك الأولى في تركيا؟

- أجل.

ستحبينها كثيرًا، إنها بلد جميل جدًّا، الناس هنا ودودون، ومرحبّون جدًّا.

لم أستطع منع نفسي؛ وقلت بثقة:

- في الحقيقة جدي من هنا، من إزمير تحديدًا.

سأل:

- مِنْ إزمير؟

لا أظن أنه صدّقني؛ ولكن بينما كان يقود سيارته، نظر إلى الخلف مرة، مرتين، ثلاث مرات، للحصول على صورة أفضل لي.

فجأة، قال:

- لديك وجه تركي: بشرة تميل للسمرة، الأنف الطويل، لا أعرف كيف لم ألحظ هذا من قبل؛ ولكن أنتِ لا تجيدين اللغة التركية، أليس كذلك؟

قلت:

- لا للأسف. لم يعلّم جدي والدتي لغته الأم.

بعد هذا، أصبح كائن أكثر ودًا؛ وتجاذبنا أطراف الحديث طوال الطريـق إلى الفندق. قال لي إنني سأحب المدينة؛ ولكن من يدري ربما أعود لجذوري لبعض الوقت.

استعدت مزاجي الجيد بالتدريج، وجلست أفكر فـيما أسـتطيع فعلـه بالإضـافة إلى جولات بالقوارب، وزيارة المسـاجد والمتـاحف، بالإضـافة إلى أنَّ السـائق أقنعنـي بأنني لن أكون مجرد سائحة عادية لأنَّ وجهي ذو ملامح تركية.





ضحكت كثيراً عندما قلت إنك تحب عندما تكون المرأة في فترة حيضها.

سألتك:

- ما الذي تقصده؟ ماذا تحب بالضبط؟ الرائحة؟ اللون؟

أجبت:

- الطعم.

ضحكت باشمئزاز، وقلت:

- لا يُعقل.

قلتَ مؤكدًا:

- بل يُعقل.

ترددتُ قليلًا لأستوعب إجابتك وقلت:

- حسنًا هيا بنا.





راودني كابوس غريب الليلة الماضية. كنت قد وصلت إلى منـزل جـدي في تركيا، وهو منزل كبير، وجميل ولكنه قديم للغاية؛ ذو جدران مزخرفة، مثـل الثوب المطرَّز.

بدتْ لوحةُ سمك السلمون المعلقة كأنها طازجـة، وشـغلَ البـابُ المصـنوع مـن الخشب الداكن المنقوش؛ نصفَ الجدارِ، وكان قفله بالقرب من إحدى المفصلات.

أدخلت يدي في حقيبتي لأتأكد من أن المفتاح بـداخلها؛ ولكـن لم يكـن المفتاح الشيء الوحيـد بـداخلها، بـل وجـدت الـعشرات مـن المفـاتيح، كلهـا متوافقة مع الباب، ولكن ليس مع القفل، أفرغـت محتويـات حقيبتـي عـلى الأرض، وفي يأسٍ، بدأت في البحث عن المفتاح؛ ولكن كلما حاولت التركيـز في البحث ظهرت مفاتيح أكثر، كان هناك أكثر من مائة مفتاح.

قلت لنفسي: "هذا غير ممكن، يجب أن يكون هنا، أنا أعلم أنه هنا".

فجأة، سمعت صوت صرير، كان صوت فتح الباب.

ظهر رجل بعمر والدي، ودعاني للدخول.

- إنه هنا، تعالي للداخل، ادخلي إلى منزلك.

كنت متفاجئة؛ لماذا كان هذا الرجل يتحدث البرتغالية؟

قال مرة أخرى:

- تعالي.

عندما دخلت، كان المنزل مليئًا بالناس، من أعمار مختلفة، وكان هناك شيء مألوف بشأنهم.

كان الرجال يرتدون الكيباه - غطاء رأس - ومعظم النساء - ولكن ليس جميعهن - يرتدين الحجاب.

حاصروني وعانقوني ورحبوا بي، و قالوا:

- هذا هو بيتك.

كانت الطاولة مليئة بالخبز، والعسل، والتفاح، والمصة - خبز يصنع بلا خميرة - والنبيذ، و"البنو" والجبن و"البورسكا" واللوز.

- تعالي، اجلسي. لقد أعددنا لك بعض الطعام.

لم أكن جائعة، ولكن لم أستطع مقاومة الرائحة. لقد بدأت بالجبن و"البوريكاس بالباذنجان"؛ ولكنني سرعان ما أدركت أنني الوحيدة التي

كانت تتناول الطعام. في الواقع، كنت الجالسة الوحيدة على الطاولة، وقفوا جميعًا يراقبونني؛ وأنا آكل كأنني لست آدمية.

توقفت عن الأكل وبدأت في البحث عن وجه مألوف، كنت خائفة، وعندما لاحظوا ذلك ضحكوا.

ركضت مسرعة نحو الباب، فقد تأكدت أنني في البيت الخطأ ، ثم سمعت صوتًا جهوريًا يقول:

- هذه هي عائلتك!

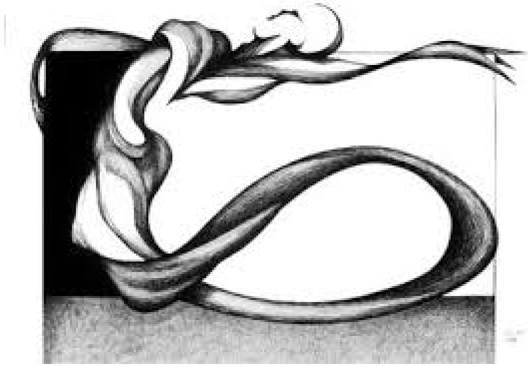
حاولت فتح الباب؛ ولكنه كان مغلقًا، ولكن في هذه المرة لم أمتلك أي مفتاح لفتحه.

تعالى صوت ضحكاتهم أكثر فأكثر.

صرخت:

- أين المفتاح؟

وبعدها استيقظت غارقة في عرقي، على سريري، في غرفتي، في شقتي.



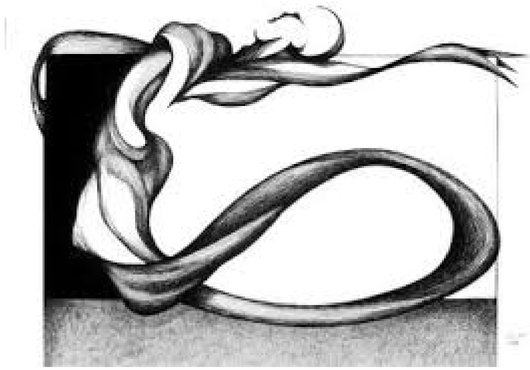
- كل يوم، تمر عليَّ لحظات، أفعل أشياء ثم أفكر، هذا لم يكن أنا، أشياء يومية عادية: مثل الابتسام، أو الاسترخاء على الأريكة لقراءة الصحيفة، أو شرب القهوة. فجأة ينتابني إحساس بأن هذا ليس أنا، مثلًا عندما أضحك أنا متأكدة أنك أنتِ من تضحكين.

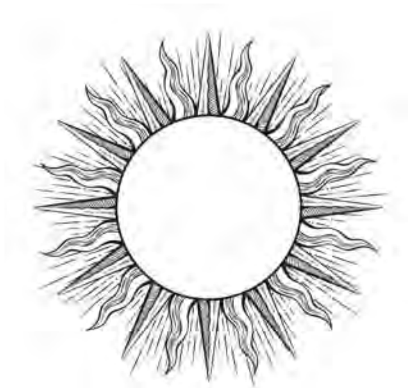
- إنها حقيقة؛ عندما أنظر إليك أدرك كم نحن متشابهان، فأنا أشعر بذلك أيضًا.

- إنه شعور غريب، فأنا لدي يقين مطلق أنه ليس أنا، ولا أنت، أحيانًا يكون أبي، أو جدي، وفي بعض الأحيان أشعر أنه شخص لم أقابله من قبل، لكنه يتحدث من خلالي، كما لو كان جسدي ليس لي وحدي، أشعر بهذا الانفصام طوال الوقت، بأنَّ أشخاصًا آخرين يرافقونني.

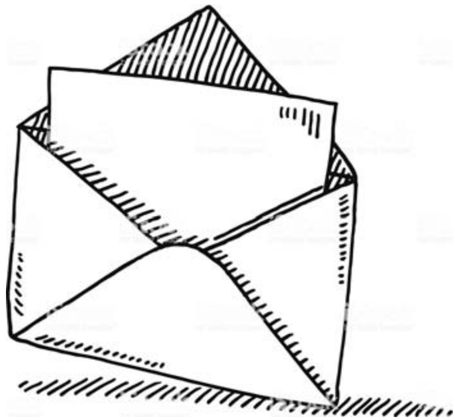
- لكن هذا مجرد شعور، هذا ليس حقيقيًّا أنت أنت، والآخرون هم مجرد أفكار تذكرنا بأشخاص آخرين.

- لا يا أمي، لن أقتنع بمثل هذه الكلمة البسيطة: أفكار، أنا لا أقول إنهم أرواح، لكن كلمة "أفكار" هي وصف خاطئ، قد لا أكون قادرة على إقناعك، لكنني أعرف أنه عندما يكون ظهري منحنيًا فهذا ليس أنا وحدي، يا أمي، حتى لو لم أجد الكلمة الصحيحة، إنَّ جسدي ليس لي وحدي.





لم نستطع رؤية ضوء النهار من الغرفة، كما لو أننا أمضينا حياتنا بالكامل منتظرين هذه اللحظة، لقد تجاهلنا كل شيء وقضينا أيامنا في السرير.



علم بوفاة "روزا" من رسالة أرسلتها شقيقته. كان قد أمضى بضعة أشـهر في "ريو دي جانيرو"، بدأ العمل مع ابن عمه، وخطط لفـتح متجـره الخـاص لبيع المعدات. افتقد عائلته كثيرًا، وكان يكتب لهم أسـبوعيًّا. كانـت الرسـائل التي يتلقاها مـنهم متشـابهة؛ بـدا كـأن شـيئًا لم يتغـير بعـد مغادرتـه، كـان يتحمَّس كثيرًا في كل مرة يتلقى خطابًا من تركيا، كان يفتحه بسرعة كل مرة، متلهفًا لسماع الأخبار وبعض عبارات التشجيع. كتبت له شقيقته عـن عمـل والـدهم، ومشـكلات والـدتهم الصـحية، وعـن شـقيقه الأكـبر الـذي تـزوج، وشقيقه الأصغر الذي كان يريد أن يتبـع خطـاه ويجـرب حظـه في البرازيـل، وهي كانت تنتظر نتائج بحث والدها عن زوج مناسب لها.

"ولكنني لا أريد الزواج هكذا؛ أريد الزواج عن حب، ولكن والدي لن يفهم ذلك، لا أريد الزواج ممن يختاره هو، ألن يفهم والدنا هذا أبدًا؟ لا أريد زوجًا اختاره هو لي، أريد أن أكون قادرةً على الاختيار، ألا تتفق معي يا أخي العزيز؟".

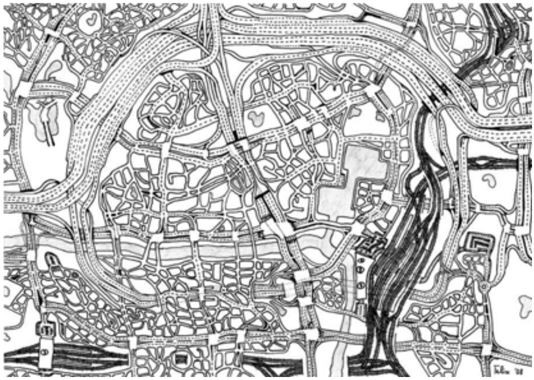
تعاطف معها كثيرًا فهو يدري عمَّاذا تتحدث.

"أخشى أن أمر بنفس ما مرت به "روزا"، أتذكر "روزا"؟ ابنة رئيسك القديم في متجر الأحذية؟ حسنًا، على ما يبدو، كانت تحب شابًا لم يوافق عليه والدها، وخوفًا من هروبهما معًا، قرر تزويجها من شابٍ لطيف من إسطنبول، من عائلة جيدة. رفضته "روزا". لم ترغب في أي شخص غير الشخص الذي أحبته، ولكنك تعرف كيف تجري الأمور هنا، لم يكن لـ"روزا" رأي في الأمر، هل تعرف ماذا فعلت؟".

تجمَّد، كان خائفًا من إكمال الرسالة، ولكنه لم يستطع التوقف عن قراءتها.

"ربطت حجرًا بكاحلها، وألقت بنفسها في البئر الذي في الميدان. لقد قتلت نفسها يا أخي العزيز، وجدوا جسدها يطفو هناك. هل يمكنك تخيل الفضيحة؟ رفضت الأسرة الحِداد على وفاتها، والآن يستخدمها المجتمع كمثال لإقناع الشابات بالزواج ممن يختاره والدهن، ولكن ألا يجب أن يكون العكس؟ أن نتعلم من القصة استحالة الزواج دون حب".

ظل يرتجف، شعر بالغثيان، ولم يقوَ على الوقوف، كان يشعر بالأسف؛ ما كان عليه السفر للبرازيل أو كان يجب أن يُحضرها معه.



قبل مغادرتي البرازيل، لم أتخيل أن الجو سيكون بهذه الحرارة، جلست في أحد المقاهي لشرب العصير، ولدراسة الخريطة التي أعطتها لي موظفة الاستقبال في الفندق. صُدمت للحظة عندما لاحظت أن إسطنبول هي مدينة كأي مدينة أخرى.

بحثت عن الشارع الذي يقع فيه الفندق لعدة دقائق حتى أدركت أنني لست بعيدة عن وسط المدينة، ولكنني لم أكن أعلم كيفية الوصول إلى هناك.

كنت أرغب في الذهاب لرؤية المساجد. دفعت ثمن العصير وطلبت من النادل أن يَدلَّني على الطريق، ولكن لم تفدني إجابته كثيراً حيث إنها كانت باللغة التركية. على الرغم من أنه هز رأسه عندما سألت إذا كان يتحدث الإنجليزية، وفي النهاية أخذت تاكسي.

- جامع السلطان أحمد، من فضلك.

كنت واثقة من أنني اخترت المكان الصحيح عندما دُهشْتُ عند رؤيته للوهلة الأولى، ليس فقط بسبب ضخامته بل هناك أيضًا تلك الأبراج الزرقاء التي تجذبك بتفاصيلها الرقيقة ولونها الأزرق، أنْسَاني ما رأيته حتى الآن كل شيء حولي: الجو الحار، والروائح الكريهة، وجحافل السياح، والباعة المتجولين، حتى إنني نسيت سبب رحلتي: مفتاح الباب، وجدي، والماضي.

لقد كنت أنا والمسجد وحدنا للحظة، هو ينظر لي بكبرياء وأنا أنظر اليه بضعف، كما في قصص الحب.

لقد أحببته كثيرًا، كما لم أعجب بصرح أثري هكذا من قبل، أمضيت وقتًا طويلًا في التجول حوله، وأرجأت لحظة الدخول لأطول فترة ممكنة. رأيت ممرًا به صف من الصنابير والمقاعد المنخفضة، وفي منتصف الممر، كان هناك شابان ورجل مسن يغسلون أقدامهم، ووجوههم، ورقابهم.

كان الجو حارًا جدًّا وفكرت في إنعاش نفسي قليلًا، قمت بتقليدهم. جلست على كرسي، وقمت بفتح الصنبور وبللت الأجزاء المكشوفة من جسدي. نظر إليَّ الرجال الأصغر سنًا وضحكوا وهم يتهامسون. وقف الرجل المسن، وقبل أن أعرف ما سيفعل، أتى وجلس أمامي. لوَّح بيديه، وتحدث بصوت عالٍ. لم أتمكن من فهم كلمة مما قالها، ولكنني فهمت أنني لا يجب أن أكون هناك، وأنني فعلت شيئًا خاطئًا للغاية. شعرت بالإحراج وخرجت مسرعة. ضحك الشباب أكثر لأنَّ الرجل الغاضب الأكبر سنًا عاد إلى مكانه واستأنف طقوسه.

لاحقًا اكتشفت أن هذا المكان ليس فقط مكانًا مقدسًا، ولكنه أيضًا مخصص للرجال فقط، لتطهير أنفسهم قبل دخول المسجد لأداء الصلاة.

ابتعدت بسرعة وتوجهت نحو المدخل الرئيسي، صعدت السلالم ووجدت منطقة مرصوفة مستطيلة الشكل؛ بها ما يشبه المسجد المصغر في منتصفها، وخلفها باب خشبي، ضخم، منقوش، يدخل ويخرج الناس من خلاله، وفي الخارج شاهدت الكثير من العائلات والأطفال.

غطت النساء رؤوسهن بالأوشحة، والبعض الآخر بالحجاب، وإحداهن كانت ترتدي النقاب؛ مغطاة بالكامل باللون الأسود، لا أرى منها إلا عينيها. كنت قد رأيت نساء مثلها في الصحف والتليفزيون وفي الأفلام، ولكن رؤية واحدة أمامي كان غريبًا؛ شعرت بمسافة كبيرة تفصل بيننا، كأن بيننا خليج لا يمكن عبوره، وفي الوقت نفسه شعرت بأننا نفهم بعضنا كوننا نساءً.

قد أكون مكانها، أتمنى لو أستطيع كشفها لأراها، لم يكن الأمر مجرّد فضول. شعرت بأنني بحاجة إلى أن أكون بالقرب منها، ولمسها، لإزالة الحاجز الذي بيننا. عندما لاحظت أنني أراقبها، نهضت، وعبرت المنطقة المعبّدة، وجلست حيث لم أتمكن من رؤيتها، مباشرة خلف الهيكل المركزي. شعرتُ بالخجل مجددًا كانت هذه هي المرة الأولى التي أطأ فيها عالمًا مختلفًا، ولا يمكنني إخفاء حقيقة أنني لست من المحليين، كنت أقوم بأشياء لا يقومون بها. شعرت بالخجل من نفسي. لم أرِد أن أكون دخيلة، ولكن أظن أنه أمر لا مفر منه.

عندما دخلت المسجد، اقترب مني رجل وأعطاني وشاحًا لتغطية رأسي وشيئًا لتغطي ساقي. اضطررت أيضًا إلى إزالة حذائي. رأيت رجلين يتكلمان، مع بطاقات تعريفية معلقة من أعناقهما. قدّم أحدهما نفسه

وتحدثنا قليلًا، ثم سألني عمَّا إذا كنت أريده أن يرافقني أثناء زيارتي، فقبلت. كنت أريد أن يشاركني أحد المحليين زيارتي، كان يبدو لطيفًا.

قال:

- أنا لستُ مرشدًا، أنا فقط أعمل هنا في المسجد وأستطيع أن أخبرك أشياء قليلة عن تاريخه.

ثم أخبرني متى، وكيف، ولماذا تم بناؤه، ومعنى بعض النقوش الموجودة، ولماذا سُمي جامع السلطان أحمد بـ"المسجد الأزرق"، وكذلك اسمه الحقيقي، وأراني اتجاه مكة المكرمة، وكيف يصلي المسلمون.

مشى صبي بيننا؛ مرتديًا ملابس تبدو كملابس الأمراء، كان يستعد للتطهير.

سألت:

- في هذه السن؟

- نعم، البعض يفعلها وهم رضّع، ولكن معظمهم يفعلون ذلك بين سن الخامسة والثامنة، إنهم يسْعدون كثيرًا بهذا.

استأذنت الصبي لآخذ صورة له، وافق وابتسم ابتسامة عريضة، فخورًا بملابسه الاحتفالية.

كان المسجد ضخمًا، وكنت وحدي تقريبًا، طلبت من الرجل المرافق لي أن يتركني وحدي. أنا لست مسلمة، أو حتى متدينة، لكنَّ شيئًا ما في المكان أشعرني بالسلام، شعرت برغبة في أن أكون وحيدة، مع حزني، وسعادتي.

كدتُ أغفو من الصمت! عندما اقترب مني الرجل مرة أخرى ليخبرني أنه عليَّ أنْ أرحل، لأنَّ الصلاة ستبدأ، ولا يُسمح للسيَّاح الوجود بالداخل في أثناء الصلاة.

غادرت بسرعة، خائفة من ارتكاب خطأ آخر، عند الباب، أعدت الوشاح ولبست حذائي، وكان الشاب يقف هناك، وقال إنه يريد أن يريني شيئًا أخيرًا، عبرنا المنطقة المرصوفة، وطلب مني أن أنظر بعناية إلى الأعمدة لمعرفة ما إذا كنت لاحظت أي شيء غير عادي. قلت: "لا، لا أستطيع أن أرى ما كان يريدني أن أراه". أشار إلى عدة أسماء مكتوبة باللغة العربية، ولكنها بالكاد ظاهرة،

قال:

- هذه هي أسماء البنّائين، في كل مرة ينهون قسمًا من المسجد، يضعون توقيعاتهم.

تبادلنا بضع كلمات أخرى؛ ثم قال معتذرًا:

- عليَّ الذهاب، يجب أن أستعد للعمل.

غادرت المسجد في حالة من الخضوع. كنت أتجول عبر المنطقة المرصوفة، لم أكن أعرف الطريق، كانت قدماي تسيران على الأرض، ولكنَّ عقلي كان في مكان آخر.

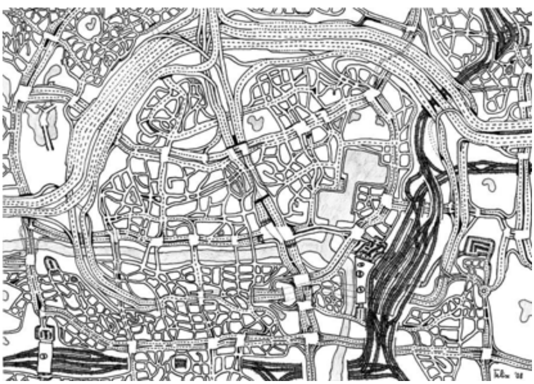
كنت جالسة على مقعد عندما سمعت صوتًا يجتاح الميدان، عبر المدينة. بدا وكأنه آتٍ من كل مكان. كان صاخبًا، وحزينًا، وكأنه رثاء حقيقي. شعرت وكأنني سمعت ذلك من قبل، لكنني كنت على يقين من أنني لم أسمعه، رأيت الناس تسرع ذهابًا وإيابًا، أظن أنها دعوة للصلاة.

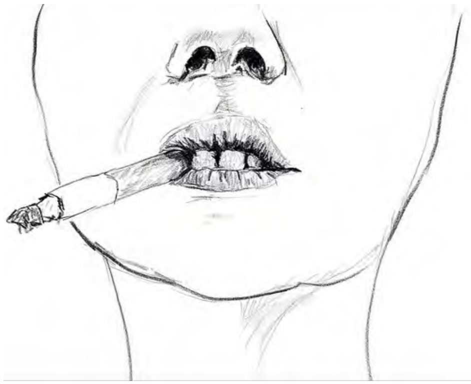
استمر الصوت، والصدى، واستمر الصدى حتى بعد توقف الغناء، توقف ثم بدأت مرة أخرى، أخرجت كاميرتي، التي كانت تسجل الصوت أيضًا، وسجلته.

أردت أن أتمكن من سماعه مرة أخرى، في أماكن أخرى، في أوقات أخرى، استراح الصوت قليلًا ثم استأنف نداءه، كان الميدان خالٍ تقريبًا، لم أرَ الأولاد الذين يبيعون التحف أو بائعي الكباب أو حتى الطيور، فقط السياح، مثلي.

استمر الغناء، وتوقف، أربع مرات.

تردَّدَ الصوتُ في جسدي، وروحي، وبعض الذاكرة التي لم أكن على علم بوجودها، انتشر الصوت الذي بدا كنحيب أو صرخة حزينة في جميع أنحاء المدينة حتى توقف، بدا أن إسطنبول قد ماتت، وشعرت أنَّ شيئًا فيَّ قد وُلِد من جديد.





في المصعد سألت:

- لِمَ العجلة؟ لقد كنت مستمتعة بالمحادثة.

قلت:

- أنتِ السبب؛ ملابسك، فستانك، وعدم ارتدائك لحمَّالة الصدر.

قلت مستغربة:

- ماذا تقصد؟

قال:

- هذا كل شيء، لا أستطيع التحكم في نفسي معكِ.

ابتسمت، وقبلتك قبلة دامت أطول من اللازم.

وفي السيارة بالكاد تحدثنا؛ فقد كنت تقود بسرعة جنونية متجاهلًا الإشارات المرورية.

قلت:

- تمهَّل قليلًا.

ولكنك ابتسمت وتابعت القيادة.

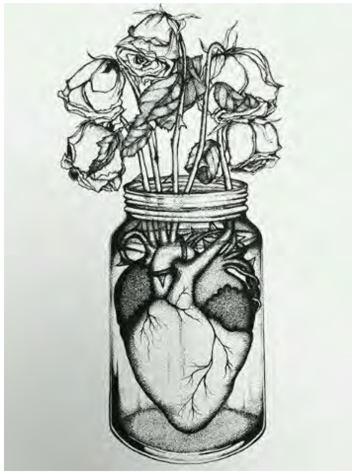
عندما وصلنا للمنزل خلعت حذاءك، وذهبت لإحضار "الويسكي"، وأشعلت سيجارةً.

قلت:

- أريد واحدةً أيضًا.

أشعلت لي السيجارة، وجلسنا في صمت نشرب وندخن، حتى نظرت إليَّ نظرةً علمتُ منها أنَّ الوقت قد حان، وقفت ببطء وبدأت بخلع ملابسي. تبادلنا النظرات قليلًا، ثم بدأت أنت بخلع ملابسك. أحب رؤية جسدك كثيرًا، تبادلنا النظرات لدقيقة أخرى حتى لم نستطع الانتظار.





أقوم باختلاق هذه القصة عن أجدادي، وقصة الهجرة بخسائرها، والقصة عن مفتاح جدي لمنزله في إزمير، وآمالي في العودة لمسقط رأس أسلافي.

أنا وأنت فقط نعرف السبب الحقيقي وراء عجزي عن الحركة، أنا فقط أختلق هذه القصة لأبرِّر عجزي عن الحركة، لأعطي العالم ونفسي إجابة لذلك، ولكن أنا وأنت فقط نعرف الحقيقية.

أنا لم أولد هكذا، أنا لم أولد على كرسي متحرك، أنا لم أولد عجوزًا، لقد أصبحت هكذا، لقد فقدتُ قدرتي على الحركة بالتدريج بعد رحيلك، بعد أن قابلت الموت وجهًا لوجه، كان موتك أنت الذي أخذ مني قدرتي على الحركة، وتركني مشلولة في هذا السرير المتعفن.

"لا أريد أن أكون الملام على عدم قدرتك على الحركة، فأنا ما زلت بجانبك ولكنني لن أشاركك في هذا الجنون، أنا لم أختر الرحيل وأنت تعلمين هذا، ولكنني لا أستطيع مساعدتك الآن، لذلك افهمي كلامي جيدًا، لقد رحلت، وإذا استسلمتِ الآن سأموت للأبد، وإذا لم تغادري غرفتك سأعلق أنا هنا، انهضي، تحركي، ليس من أجلك فقط بل من أجلي أنا.

أنا لا أطلب منك نسياني، ولكنني أريدك أن تعيشي لأجلي، استمعي لي هذه المرة فقط، ابذلي جهدك، لن يكون الأمر سهلًا، أنا لا أطلب الكثير. أريدك فقط أنْ تُغيِّري نظرتك للحياة، أنتِ لم تخسري أي شيء، لا يمكنك أن تخسري شيئًا هو ملكك بالفعل.

إذا استطعتِ فهم دور الموتى في هذه الحياة، لن تمضي دقيقة في هذا السرير، لا تستسلمي لأن استسلامك يعني نسياني للأبد، عيشي وسأعيش أنا".





إسـطنبول متخصصـة في صـناعة الأبـواب، لـيس فقـط أبـواب المسـاجد والقصـور، بـل أبـواب المنـازل الصـغيرة أيضًـا. جميعهـا مصـنوعة ومنقوشـة بحرفية، أغلبها مصنوع من الخشب.

ستحتاج إلى وقت لاستيعاب جمال كل بـاب، في أثنـاء تجـولي كنـت أرى العديـد مـن الأبـواب التـي تلفـت نظـري سـواء بحجـم القفـل، أو بتعقيـد التصميم، أو لون الخشب، أو وزنه، وأحيانًا رائحته.

في بعـض الأحيـان كـان مُـلّاك الأبـواب يرونـنـي وأنـا أحـدق بـأبوابهم ويسألونني عن سبب وقـوفي فـأخبرهم أننـي أتأمـل جـمال البـاب. بعضـهم يبتسم، والبعض الآخر يعبس في وجهي، وكان منهم من يحكي لي عن البـاب: عن قصته، وتاريخه، وعمره، وعن التصميم، وحجمه. كان منهم من يتحدث

الإنجليزية ومن منهم من حدثني بالتركية؛ ولكنني كنت أشكرهم على أية حال، ما كان يهم هو أنني عرفت أن الأبواب لها قصة وتاريخ.

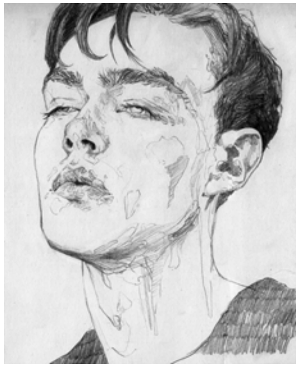
بدأت في الاستعداد للذهاب إلى إزمير، كنت أحـاول الاعتيـاد عـلى شـكل الأبواب هنا، حتى لا أتفاجأ عند رؤية الباب الذي في انتظاري.





أحب ركوب الدراجة في الليل بعـد ممارسـة الجـنس، لا سـيما إذا كانـت الدراجة قديمة الطراز، ومقودها منحنٍ وبهـا سـلة، مرتديـة تنـورتي، والـريح تكشف عن فخذي، وأنا أقود.

أحـبُّ أنْ أقـود بسرعـة، والشـوارع خاليـة تقريبًـا، متجاهلـة الإشـارات الضوئية، في الشوارع الرئيسية والجانبية، والشوارع التي لا أعرفها، بابتسـامة عريضة، وجسدٍ دافئ.



وجدوه ملقى على الأرض محاطًا بالقيء، بجوار رسالة شقيقته.

لم يأتِ إلى العمل، فأرسل ابن عمه أصغر أطفاله للاطمئنان عليه. كان صبيًا في السابعة من عمره، أصابه الذعرُ عندما رآه على الأرض؛ ظن أنه مات.

خرج للشارع يبكي ويصرخ أن أحدهم قتل ابن عمه، يصرخ بأن أحدهم قتل ابن عمه؛ مثيرًا ضجة كبيرة.

جاء الجيران من الشارع بأكمله، ليشهدوا المأساة؛ يحب بعض الناس رؤية الجثث المغطاة بالدماء، المطعونة، المحطمة فقط ليُزيِّفوا شعورهم بالأسى تجاهها.

بدأ الناس بالفعل اختلاق قصص عن سبب وفاته: إنه جلب المرض معه من بلاده، وأصابته بنوبة قلبية.

عندما جاء ابن عمه، صاحب متجر المعدات، قام بسحب جثته، ووضع يده تحت أنفه، ورأى أنه ما زال يتنفس.

قال:

- لم يمت، إنه فاقد للوعي.

استطاع بعض الحاضرين إخفاء خيبة أملهم. "لمَ كل هذه الضجة إذا كان فاقدًا للوعي فحسب". عادوا جميعًا لأعمالهم، باستثناء ابن عمه وجاره، اللذين نقلاه إلى السرير، وحاولا أن يعيدا له وعيه.

في البداية أرادا نقله إلى المستشفى، ولكن عندما استعاد لونه ببطء، ظنا أنه من الأفضل تركه ليرتاح.

قال:

- أنا أشعر بتحسّنٍ ولا أريد الذهاب لأي مكان. أنا متأكد أن الأمر ليس خطيرًا، أنت تعرف كيف هي الحرارة هنا.

قال ابنُ عمه:

- استرح اليوم، وستكون بخير غدًا.

أومأ برأسه فقط، هو لا يريد كل هذا؛ هو يريد أن يكون وحيدًا، في سريره، تحت الغطاء، ولكن كان عليه أنْ ينتظر مغادرة ابن عمه، وبعد ساعة من الكلام والضحك؛ غادر ابن عمه وجاره.

قال ابن عمه:

- أراكَ غدًا في العمل، اتفقنا؟

ولكنه لم يذهب للعمل، ولم يغادر سريره قط لأكثر من شهر. كان بالكاد يتحدث، وكان يتقيأ كلما أكل أو شرب بضع قطع من الخبز اليابس والقهـوة البيضاء.

كـان جسـده يضـعف مـع الوقـت، قـال أقاربـه إنـه يمكـن أن يكـون "deskarinyo"، وبدأوا بالتفكير في إعادته إلى تركيا على متن السفينة التاليـة المتجهة لهناك.

حتى أولئك الذين عاشوا في البرازيل لفترة مـا زالـوا يخلطـون البرتغاليـة بلغتهم الأم، هذا هو سبب قولهم "deskarinyo"، وتعني الحنين للوطن.

كانوا قد اتصلوا بالطبيب، الذي أكد أن صحته جيدة:

- إنه مُتوهَّمٌ.

ما لم يعرفه أحدٌ هو أنَّ قلبه مريضٌ بالحزن والشعور بالذنب، لقـد فقـد حبه "روزا". أمضى شهرًا بأكمله في الفراش. ليالٍ لا نهاية لهـا يفكـر في "روزا" ويديها الرقيقتين، وشفتيها الجميلتين، وشعرها الطويل، وخجلها.

كانت حبه الأول والأخير، فقد قرر أنه لن يحب امرأة أخرى كما كان أحبها.

بدأ يندم على تركه لإزمير، كان يجب عليه البقـاء ومعانـدة والـد "روزا"، متجاهلًا العادات والتقاليد. شعر بالقلق يجتاح جسده أكثر مع الوقت.

شـعر بالسـوء أكـثر وظـل يكـرر: "أريـد أن أمـوت"، حتـى إنـه فكـر في الانتحار، معتقدًا أنَّ الموتَ وحده يمكن أنْ يخفِّـف معاناتـه، وأنـه إذا وصـل إلى نهاية حبيبته نفسها، فسوف يُغفر له ذلـك، لكنـه لم يقـوَ عـلى الوقـوف،

كأن جسده والسرير أصبحا كيانًا واحدًا، كان بالكاد يحرك ذراعيه وساقيه، وانحنت أظافره من الطول، وآثار العفنِ تظهر على جلده.

ظل كذلك حتى اتصل به ابن عمه وهدَّده بأنه سيتصل بالجيران ليخرجوه من السرير. حينها فقط نهض أخيرا، وقطع الجذور التي ربطته بالفراش كل هذه المدة، تحرَّك، بعد أن رقد في المكان نفسه. في السرير نفسه، لأكثر من شهر.





- لماذا تركزين دائمًا على الألم؟ لقد كنت دائمًا هكذا، منذ أن كنت طفلة صغيرة، إن قصة جدك ليست عن الخسارة فقط، بل تحتوي على قصص أخرى، لماذا لا تكتبين، على سبيل المثال، عن مدى حسن حظه بقدومه لبلد مرحّب كبلدنا؟ لماذا لا تقولين إنه كان قادرًا على تحقيق ما حققه فقط لأنه غادر؟ أو أنه عندما وصل إلى البرازيل، وجد سلامًا لم يكن يعرفه من قبل؟ لماذا نصّر على ذكر الألم؟

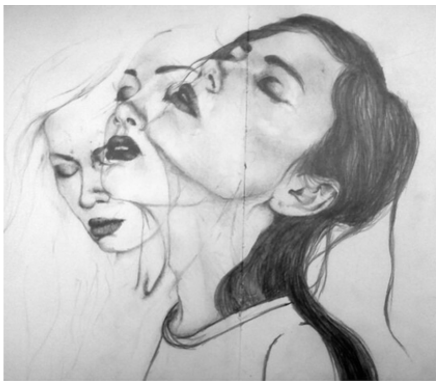
- لا أستطيع تغيير أسلوبي، أنا أشعر بالسعادة، ولكن ليس هنا، السعادة هي جزء من حياتي أيضًا، في "البارات"، على الشاطئ، مع الأصدقاء، في الرحلات.

- إذًا لِمَ لا تظهرينها في كتاباتك؟

-لا أستطيع فعل ذلك، إذا لم تنزف كتاباتي، فهي بلا فائدة، إذا لم تخترق الجسد، فهي بلا فائدة. أستمر بالعودة إلى الألم، لأنه هو ما يجعلني أكتب.

- لماذا لا تحاولين؟ إذا كنت لا تستطيعين الكتابة دون ألم، على الأقل اكتبي دون الشعور بالذنب، خففي عن نفسك.

- أنا لا أعرف؛ لست متأكدة من قدرتي على فعل هذا، لكنني أعدك أنني سأحاول.





- أتحبني؟

- أجل.

- ما مقدار حبك لي؟

- أنتِ وأسئلتك مرة أخرى.

- أجبني: ما مقدار حبك لي؟

- كثيرًا.

- إلى أي مدى؟



لا يمكنك أن تموتي الآن، هذا ليس عدلًا، فأنا أصغر مِنْ أنْ أفقدك، وأنـتِ أصغر مـن أن تغـادري، أنـا لا أعـرف كيـف أسـير وحـدي، دون أن تهـدئني كلماتك الرقيقة.

أنا لست مستعدة للعـيش بمفـردي، أحتـاج إلى مزيـد مـن الوقـت. بـل أحتاج إلى الكثير من الوقت، كل الوقـت، لا يـزال هنـاك الكثـير مـن الأشـياء التي لم نقم بها معًا. عندما أحزن لن يكون لدي ذراعك لتلتف حولي، عنـدما أكون خائفة، لن يكون لدي تنورتك لأختبئ خلفها.

لن يكون لدي من أعبر له عـن حبـي مـرارًا وتكـرارًا دون خـوف، هنـاك أشـياء لم أخـبرك بهـا، أشـياء أريـد إخبـارك بهـا، وأنـتِ أيضًـا لـديكِ قصـص لتخبرينني بها، أريد أن أخبرك عـن المغـامرات التـي لم أعشـها بعـد، أريـدك بجانبي عنـدما أنشر كتـابي الأول. أريـدك بجـانبي عنـدما ألـد طفـلي الأول، والثاني، والثالث، أريدك أن تبقي للأبد.

أعلم أن هناك أسبابًا لرحيلـك: هـذه هـي الحيـاة، لا شيء يـدوم للأبـد، والموت دائمًا يأتي عاجلًا أم آجلًا، لكنني أرفـض جميـع هـذه الأسـباب، لهـذا أبكي وأصرخ: "لا تذهبي. رحيلـك لـيس عـدلًا". أصرخ وأضرب عـلى تابوتـك الخشبي: "هذا ليس عدلًا، أخرجوا أمي من هنـاك". كنـت كالمجـانين؛ أكـرر: "افتح التابوت، افتح التابوت".

انـزعج الحـاضرون، وشـعروا بـبعض الحـرج وقـالوا: "مسـكينة". إنهـم يشفقون عليَّ، لكنهم لا يشعرون بمعاناتي.

الجو مشمس اليوم، لا يجب أن يكون الجو مشمسًـا عنـدما يغـادر مـن نحب. قام حفارو القبور بوضع التابوت في الحفرة ثم ردموه بالتراب.

دفنوا التابوت وتركوكِ وحدك هناك، وأنا هنا، وحدي.

توقفت عن الصراخ، ولكنني متأكدة أنني شهدت ظلـمًا عظـيمًا، وأظـن أنه لو كنت هنا لاختلف كل شيء.

إذا كنت هنا، وتسـمعينني، افتحـي التـابوت واخرجـي، سـيري نحـوي، وأمسكي بيدي، وأخبريني أن كل شيء على ما يرام.

لو كنت هنا، كنت ستكفكفين دمـوعي، ولكنـك لا تسـتطيعين سـماعي بعد الآن.



كنا في السرير عندما رن جرس التليفون، أجابني صوت لم أتعرف على صاحبه، سألني عن حالي، وأخبرني أننا تقابلنا في حفلة أقامها صديقٌ مشتركٌ، وأنه حصل على رقمي منه، تابع الحديث قائلًا:

- لقد استمتعتُ بحديثنا في الحفلة، وأود أن أتعرف عليكِ بشكل أفضل.

أجبته بإجابات أحادية المقطع، لكن يبدو أنه لم يرد إنهاء المكالمة.

شعرت بالانزعاج عندما بدأ الحديث عن عيني وشعري؛ فقد كنت بجانبي، ولكنني تفاجأت عندما طلبت مني أن أتابع الحديث معه، لم تعطني وقتًا للاعتراض، وبدأت في خلع ملابسي. لم يكن من السهل التحكم في نبرة صوتي أو الانتباه إلى ما يقوله الرجل، أو الإجابة على الأقل وأنت تفعل ما تفعل.

- بالطبع، سنلتقي مرة أخرى.

كنت قلقةً من أن يلاحظ شيئًا غريبًا بصوتي، بدأت التحدث كما لـو كنـت في عجلة من أمري، كان عليَّ أنْ أختلـق قصصًـا وأفكـر بمواضـيع، وأسـأله أيـن التقى صديقنا المشترك، وعن عمله وأمورٍ أخرى لم أكن مهتمةً بمعرفتها.

أردت إغلاق الخط بسرعة لأقوم بتقبيلـك؛ وهـذا مـا قمـت بـه بالفعـل، فالتحدث على التليفون سيكون صعبًا وأنا أقبلك.





عندما كنتُ فتاة صغيرة، أخبرتني أمي قصة؛ أخبرها بها والدها عندما كانت صغيرة، من وقت لآخر، أجد نفسي أفكر بها كما لو أنها عني.

في إسطنبول، كانت هناك عائلة كبيرة جدًّا عُرفت باسم عائلة "تمبر". تميز أفرادها بالكسل؛ كانوا نادرًا ما يغادرون مكانهم، كانوا يعانون إذا اضطروا لأخذ خطوة خارج سكنهم المعتاد، نادرًا ما قاموا بزيارات، إلا في حالات استثنائية.

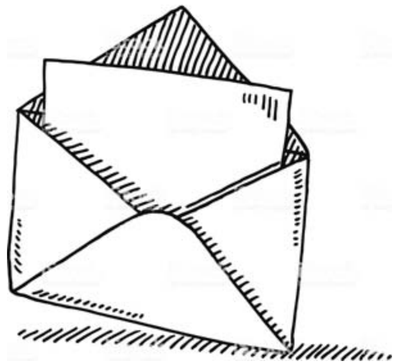
كانوا جميعًا يعيشون بجوار بعضهم بعضًا، وتشغل منازلهم منطقة سكنية كاملة، ويملكون محلات البقالة، والخياطة الواقعة في المنطقة السكنية.

وفي أحد الأيام اندلع حريقٌ في أحد المنازل، وانتشر في المنازل الأخرى، حتى التهم المنطقةَ السكنية بأكملها، وكالعادة، لم يفعلوا شيئًا، وانتظروا

المساعدة، ولكن الحريق كان مروعًا؛ لدرجة أن أحدًا لم يكن مستعدًا للمخاطرة بحياته لإنقاذهم.

وهكذا، التهمت النارُ العائلةَ بأكملها، ولم يمشوا على الأرض مرة أخرى.





أصبحتْ رسائل شقيقته له أقل؛ وهو ما أحزنه كثيرًا.

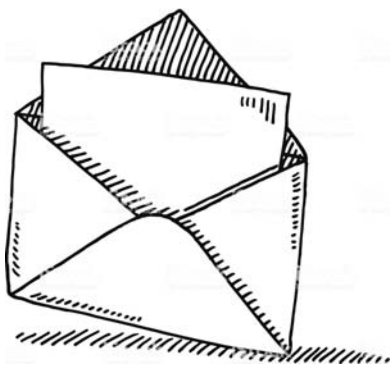
على الرُّغم مِنْ أنه اعتاد على حياته الجديدة، فقد أمضى بالفعل خمس سنوات في البرازيل، لكنه يفتقد أسرته التي تركها في تركيا، وكانت الرسائل هي الشيء الوحيد الذي يُهوِّن عليه، وتشعره أنه ما زال معهم، جلبت كل كلمة له نفحة من تركيا، من بيته.

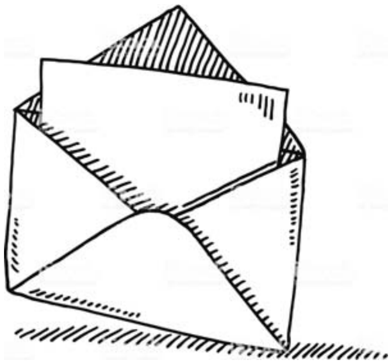
وكان يتذكر أيام السبت، عندما يقضون ساعات على طاولة الطعام، فقد اتفقوا على عدم الشجار أيام السبت، كان البيت مليئًا بالحب حتى ولو كان زائفًا.

بالنسبة له، كانت الرسائل تمثل له يوم السبت، لحظات شعر فيها بالدفء والأمان، حتى إن لم يحملوا له أخبارًا سعيدة، كخبر موت "روزا"، ولكن منذ فترة كان مضمون أغلب رسائل شقيقته سعيدًا: لقد وقعت في الحب. خُطبت بمباركة أبيهم، وزواج شقيقهم الأكبر، كان الجميع بصحة جيدة ويبلون بلاءً حسنًا، باستثناء بعض الآلام التي تعاني منها الأم.

عندما توقفت رسائل شقيقته عـن الوصـول أسـبوعيًّا؛ وأصـبحت نصـف شهرية، ثم شهرية، كان يخشى أنها كانت تُخفي شيئًا عنه.

حاول ألا يفكر في الأمر، وتابع حياته كالمعتاد، رُغم أنه ظـل يسـألها عـمَّا إذا كان هناك خطأ ما، وكانت دائمًا تؤكد عليه أنَّ كل شيء بخير، وأنها فقـط مشغولة بالتحضير للزفاف. كانت تكتب وهي تعلم أنها لـن تتـزوج، أراد أن يصدقها، على الرغم من شكَّهِ في وجود سر يكمن بين كلماتها.





عندما سلَّمَه ساعي البريد ظرفًا يحمل اسم شقيقه الأصغر، تأكد أنه كان على حق، وأنه لم يكن يتوهَّم، وأنَّ الحقيقة مختلفة تمامًا عما قرأه في رسائلها.

مزق الظرف، متأكدًا أنَّ ما في داخله لنْ يكون أكثر إيلامًا له من خبر موت "روزا".

"أخي العزيز،

للأسف، أنا لا أحمل لك أخبارًا جيدة هذه المرة، أعلمُ أنكَ كنت تشك بالأمر ولكننا لم نخبرك الحقيقة تنفيذًا لرغبة شقيقتنا، فهي لم تكن تريدك أنْ تقلق، وأنت بعيد عنا، كنتُ أُفضَّل أن تجري الأمور بطريقة مختلفة، لأنني أعرف أنك مثلي، تُفضَّل الحقيقة حتى وإن كانت قاسية وحزينة، ولكن، يصعب جدًّا رفض طلب مَنْ على فراش الموت.

أكتب الآن لأنه لم يعد لدينا ما نخفيه، ولا رغبة أخيرة لتحقيقها، لقد مررنا بسبعة أشهر من المعاناة، ولم يسمح لنا والدنا بالتحدث عن الأمر حتى، ناهيك عن ذكر اسم المرض، ولكنني الآن أكتب لك لأخبرك أنه كان السُّل.

كانت في غاية السعادة عندما حددتْ يومَ زفافها هي و"ساموبل"، كانت ترقص في أنحاء المنزل، تضحك على أيِّ شيء، كانت السعادة تتصاعد منها، حتى استيقظت في أحد الأيام وهي تشعر بالوهن، بالإضافة إلى نوبة من السُّعال الجاف، في البداية اعتقدنا أنها نزلة برد؛ ولكنها لم تتحسن مطلقًا بل ساءت حالتها يومًا بعد يوم.

عندما عادت من زيارتها للطبيب، أدركت أنَّ الفرحَ لن يدخل منزلنا مرة أخرى، لا أظن أنني رأيت في حياتي شخصًا أكثر حزنًا منها، خيَّم الحزنُ على أنحاء المنزل كما لو أنَّ المرضَ أصابنا جميعًا، أصبح منزلنا الأكثر حزنًا في الحي، مليئًا بالمعاناة الصامتة لعائلة عُرِفتْ أنها ستفقد ابنتها الوحيدة، ومعاناة تلك الابنة، التي ظنت أن سعادتها ستدوم للأبد.

لم تكن تريد إخبارك بأي شيء، لأنها لم تردك أن تتغير، فقد كانت لحظات سعادتها الوحيدة عند تلقيها الرسائل منك، ومعرفة أخبارك: البرازيل، وعملك، وصحتك، وأصدقائك.

ظلّتْ تكرر: "أنا لا أريده أن يعرف أي شيء، فهذا لن يغير الأمر، هل تريده أن يترك منزله الجديد، ليأتي لزيارة شقيقته التي على فراش الموت، لن أكون أنانية، كلنا سنلقى مصيرنا في النهاية".

لكن الآن يا أخي العزيز، لم يعد هناك سبب لإخفاء الأمر عنك، فهي لم تعد بيننا الآن، أعلم كم سيحزنك هذا الخبر خاصةً أنك كنت الأقرب إليها، فقد كنت توءمها، ولكنني أتفهم شعورك، فأنا أشعر بالألم ذاته، خاصة عندما أفكر بها وفي جمالها، ورقَّتها، ونعومتها، وكل ما كان علينا القيام

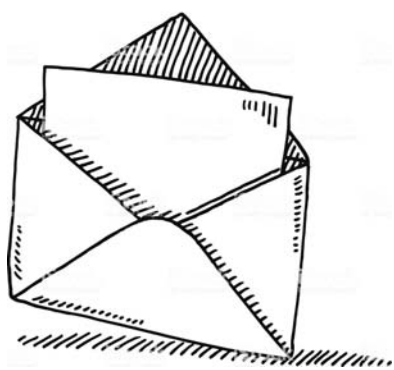
به معًا، وحياتها التي كانت أمامها، لا شيء يحزنني أكثر من هذا المستقبل الذي لم يعد موجودًا.

تغيَّر والدانا كثيرًا، كأنهما فقدا الأمل في الحياة، لن أنسى أبدًا وقوف أمّي بجوار التابوت؛ مرتديةً السواد، وعلى رأسها وشاح، تمامًا كاليوم الذي غادرت فيه، ولكن هذه المرة تبكي كل صباح. كلنا نعرف، أنه لا يوجد ألم أسوأ من فقدان طفلك.

يمكنني المتابعة بالتفصيل انتظارنا لموت شقيقتنا؛ ولكنني سأوفِّر عليك ذلك، فقد عرفت الحقيقة وهذا ما يهم.

والوقت سيهتم بكل شيء، والآن لا نملك سوى الدعاء لأختي أن تجد السلام الذي تستحقه.

سابي".





استيقظت بجانبك في السيارة، ونحن نقود في أنحاء إيطاليا، كنـت تقـود بسرعة، بيد واحدة فقط على عجلة القيادة؛ محدًّقًا في الأفق، تظاهرتُ أننـي ما زلت نائمة، ولكنني أظن أنك لاحظت أنني مستيقظة.

حاولت تصور المشـهد، كنـا في الخريـف. كـان ذلـك في أوائـل الخريـف، والأوراق تتحـول بالفعـل إلى اللـون البرتقـالي، قـد نكـون في الريـف أو عـلى الشاطئ، أتمنى ألا يرانا أحد ونحن وحدنا في السيارة، أنـا نائمـة وأنـت تقـود بيدٍ واحدة، واليد الأخرى تلمسني.



لم يعد جسدي المدمر ملكي بعد الآن، لا شيء سوى أحشائي التي تسترق النظر من بين جلدي الممزق، ورائحة الكبريت تصبح أقوى، والعبء المُلقى على جسدي يصبح ساكنًا؛ يومًا بعد يوم. أستطيع أن أشم رائحة الديدان التي تستعد للانقضاض. أنا أعلم أنهم في طريقهم للوليمة الكبيرة التي كانوا في انتظارها، ليمزقوا هذه الجثة أكثر مما هي عليه.

استخدمت آخر ما تبقى من طاقة في جسدي؛ لأضع الآلة الكاتبة على الأرض، وأخذت الغطاء ولففتُ نفسي به بالكامل، كغطاء الدفن.

لم أستطع النوم، كلما أغلقت عيني أعجز عن الرؤية، وأنا لم أُرد لهذا أن يحدث. قضيت ليالي طويلة أحارب النوم، وأبتكر طرقًا لإبقاء عيني مفتوحة على مصراعيها، حتى لو كانت الغرفة مظلمة، هناك دائمًا ضوء

خافت قادم من الخارج، وفي بعض الأحيان، أقوم بتشغيل المصباح لقضاء الليل في القراءة.

أنتِ لم تلحظي هذا حتى، كنت تتناولين الكثير من الدواء الذي يساعدك على النوم ليلًا، وفي هذه الأثناء، فعلت ما بوسعي لأبقى مستيقظة، لأنني كنت خائفة من حدوث شيء، عندما تستيقظين أشعر بقلبي يخفق بسرعة، أسألك: "كم الساعة؟". دائما الاختبار نفسه، أمامك كانت ساعة حائط بأعداد كبيرة، إذا استطعتِ معرفة الوقت الصحيح، كان كل شيء على ما يرام، ثم أنتظر اليوم الذي يليه.

- كنت أعرف أن المعركة اقتربت من نهايتها، وقد حان الوقت للاستسلام، يصل خوفك الى ذروته في أثناء المعركة، ولكن عندما تنتهي المعركة يتلاشى الخوف، وأنا لم أعد خائفة.

- لم أشعر بالقلق هكذا مِنْ قبل. كان الأمر أسوأ مما لو كنت أنا من يفقد بصري، ولا يوجد شيء أستطيع فعله، أريد أن أشعر بما تشعرين به، أريد أن أكون مكانك.

- في مكاني؟ وماذا كنتِ ستفعلين لو كنتِ مكاني؟

- لا أعلم، ولكنني أردت أن أشاركك ألمك، ولكنني لا أفهمه، كلما أغلقت عيني، شعرت بالقليل من معاناتك، ولكنني كنت أشعر بالخوف وأفتحهما بسرعة، ليس من العدل أن تخوضي هذه المعركة وحدك.

- لن أكذب وأقول إنني لا أعاني، ولكنني لا أستطيع إخفاء سعادتي، فنحن وحدنا في الغرفة ذاتها لأسبوعين، لم أشعر قط بهذا الحب من قبل،

فكل شيء قمتِ به حتى الآن يثلج قلبي، فأنت جالسة بجانب السرير، تقرئين لي، ونلعب الورق وتدعينني أفوز كما يفعل الآباء مع أطفالهم، وتحكين لي عن مغامراتك، وتتأكدين مِنْ أنَّ الممرضات يتبعن تعليمات الطبيب، وتنظفين جسدي باستخدام الإسفنجة، وتلمسين جسدي المغطى بالقروح، والجروح، والثقوب والقيح برائحته الحمضية؛ التي تشبه رائحة الموت دون اشمئزاز كما لو كان جسدك بل جسدنا.

- أنت على حق، لم أكن أعرف مدى حبي لك من قبل؛ كان الأمر كما لو أنه يتضاعف يومًا بعد يوم بلا حدود، والآن فقط عندما تلاشى خوفي من فقدانك، أدركت هذا الحب. الآن أنتِ طفلتي، وأنا من سيهتم بك.

كنت أغادر الحمام عندما أجبرتني على العودة إلى الداخل مرة أخرى.

كنت أتأمل انعكاسك في المرآة.





كنت أتمشَّى في حرّ إسطنبول الشديد عندما صادفت كشكًا يبيع الخيار. البائع رجل مسن يقوم بتقشير الخيار بمهارة، وبِيْع كلٌّ منها مقابل بضعة "سنتات"، خيار صغير ومتوسط وكبير، كامل ومخلل.

لقد دُهشْتُ؛ كانت المرة الأولى التي أرى فيها شيئًا مثل ذلك، ولكنه لم يكن غريبًا في الوقت ذاته.

عندما كنت طفلة، كنت أرفض تناول الغداء أو العشاء دون أن أحصل أولاً على خيار، غير مقطَّع، ومملَّح؛ كوجبة خفيفة بعد الظهر، خيار.

قلت للبائع:

- أريد واحدة رجاءً.

سألني:

- أي حجم تريدين؟

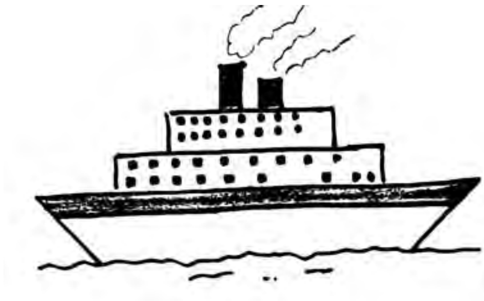
قلت:

- الصغيرة؛ فهي مقرمشة أكثر.

سألته إذا كان بإمكاني أخذ صورةٍ معه خلف الكشك. كان الأمر مضحكًا؛ فقد كان الرجل جادًا، بينما علتْ وجهي ابتسامة ساذجة، سعيدة باكتشافي.

بدأت أفكر، كانت الرحلة لسبب ما، لم يكن الماضي ملكًا لجدي وحده، ولا ملكًا للمهاجرين فقط، والخيارُ هو الدليل.





بعد وفاة شقيقته، أرسل له شقيقه الأصغر بعض الرسائل، لم يعد يتطلع لرؤية ساعي البريد كما كان في السابق؛ حتى وصلته رسالة من شقيقه الأصغر، يخبره فيها أنه آتٍ إلى البرازيل.

غمرته السعادةُ لأنه سيستقبل شقيقه في بلدٍ يعتبره الآن بلدَه، وسيساعده على الانتقال والاستقرار.

يوم وصول شقيقه لم يذهب للعمل، استيقظ باكرًا ووضع عطره المفضل، وارتدى بذلة وربطة عنق، بدا كأنه ذاهب في موعد مع فتاة جميلة، ولكنه أراد أن يقابل شقيقه في أفضل صورة.

كان متوترًا لدرجة أنه بالكاد استطاع تناول وجبة الفطور، سارع بالخروج، راغبًا في الوصول إلى "براسا ماوا" قبل الساعة العاشرة، حيث كان من المقرر أن ترسو السفينة في تمام العاشرة.

أمضى ساعتين في الشمس الحارقة، يحدق في الأفق، ينظر إلى سفينة كبيرة مثل تلك التي جلبته إلى البرازيل قبل عدة سنوات.

كـاد يغفـو عـلى مقعـد في السـاحة؛ عنـدما سـمع الصـافرة التـي كـان ينتظرها. لقد وصل، سارع إلى الحافة ليُلوِّح له ليراه.

بدأ يلوِّح ويصرخ:

- "سابي"، "سابي"!

ولوَّح له شقيقه بقبعته.

بدا مختلفًا، لقد كبر، أصبح رجلًا بالفعل!

دام العناقُ بينهما لفترة طويلة؛ ملأتها دموعُ الفرح، والضحك.

بدا "سابي" ناضجًا، وكان مسـتعدًا للقيـام بكـل مـا هـو ضروري حتـى لا يندم على اختياره للبرازيل، كان جدي فخورًا به.

كانت مشاعره تجاه أخيه الأصغر أبوية بعض الشيء، كان يعلـم أنـه يجـب عليه أن يساعد ويهتم بـ"سابي" كثيراً، لكنه لم يكن يمانع، على العكس، جدد هذا الأمر نشاطه وملأه بسعادة شعر بها بضع مرات في حياته.

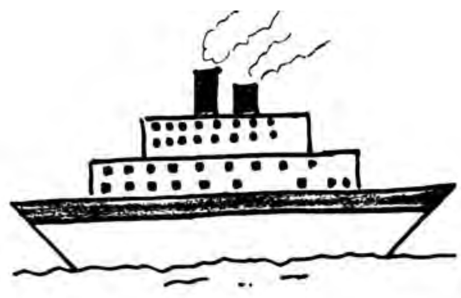
ساعد "سابي" في حمل حقائبه، ورافقـه إلى إدارة شـئون الهجـرة، حيـث ملأ "سابي" الاستمارات، وقدَّم وثائقه. كان جـدي حـاملًا للجنسـية البرازيليـة مما سَهَّل على "سابي" الحصول على تأشيرة. استغرق الأمر بعض الوقت، كـان الطابور طويلًا، والأسئلة لا نهاية لها.

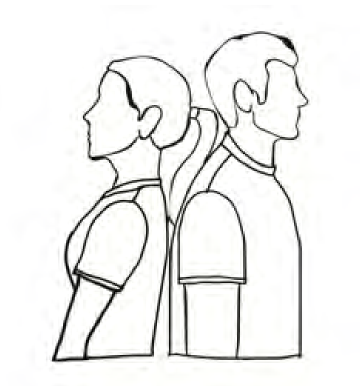
عندما خرجا أخيراً وأخذ "سابي" أوراقه، تركا عناء الانتظار والحرارة وراءهما، كان لديهما الكثير ليتحدثا عنه.

أراد أن يعرف أخبار عائلته، وكيف كانت الرحلة، وأخبار "سابي"، وإذا كان على استعداد لبدء العمل في اليوم التالي. أراد "سابي" معرفة كيف سارت الأمور في "ريو دي جانيرو"، حيث سيعيش، وإذا كان من الصعب تعلم اللغة البرتغالية، وإذا كان بإمكانه بدء العمل في اليوم التالي.

لم يكن هناك عجلة، كان هناك متسع من الوقت؛ كان المستقبل أمامهما، معًا، مُزيّنًا بالحظ، والأحداث غير المتوقعة، الحب، العائلة، والعمل، الكثير من العمل الشاق، وبالألم والخسارة أيضًا.

ولكن ما يهم في تلك اللحظة هو تبادل الحديث، والتعويض عن كل الوقت الذي غابا فيه عن بعضهما بعضًا، والتخطيط للمستقبل، حتى لو اتضح لاحقًا أنه مختلف عمّا أرادا.





لا أعرف ما إذا كانت هناك لحظة معينة ظهرت فيها خلافاتنا، أو ربما كانت دائمًا ظاهرة، لم نكن نستطيع العيش معًا بلا خلافات، وفي بعض الأحيان كنا نؤذي بعضنا بعضًا.

انفصلنا عدة مرات، وكنت أنت من تقرر الانفصال، لأنني لم أكن أعرف كيف أعيش دونك.

"يمكنك العيش بشكل جيد وحدك، بل ستعيش بشكل أفضل لوحدك".

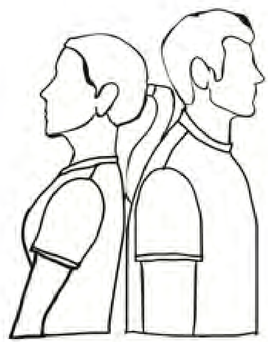
في كل مرة كنت تظن أنني متسمكة بك، كنت تقول:

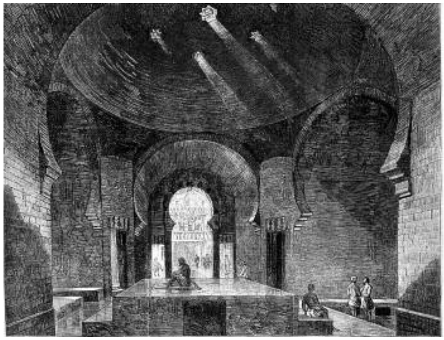
- هذا لن ينفع، لا أريد ذلك، أنتِ متطلبة، أنا بحاجة إلى بعض الوقت، فأنا لديَّ حياة وأنتِ أيضًا.

وأنا أجيب صارخة:

- حياتي ملكك، حياتي هي حياتنا.

كنا نتشاجر حتى تتحول الكلمات القاسية لقـبلات يائسـة، ونعـود كـما كنا، كأننا نلتقي للمرة الأولى؛ كما لو كنا ننتمي لجوار بعضنا.





عند المدخل، لم أجد من يتحدث اللغة الإنجليزية، وكان واضحًا من نظراتهم أنَّ وجودي غير اعتيادي؛ فهم لم يعتادوا وجود السيَّاح هنا، ومع ذلك فهموا بالإيماء أنني أريد أن أدخل.

لقد استغرقني بعض الوقت للعثور على حمام تركي تقليدي، للنساء المسلمات فقط. عندما كنت على متن "الباص"، اقتربت من امرأة وسألتها بخجل إذا كانت تستطيع أنْ تُوصي بحمام تقليدي قريب.

قالت ضاحكة:

- إنهم للسيَّاح، أنا لم أذهب منذ وقت طويل.

ذهبت محرجة؛ للجلوس في مؤخرة "الباص".

قبل أن تغادر السيدة "الباص"، كأنها تندم على أسلوبها، سلمت لي قطعة من الورق مكتوب عليها " Yildiz" وقالت إنني سأجد ما أبحث عنه هناك، على حد قولها.

أشارت العاملة في مكتب الاستقبال إلى ملابسي، مشيرة إلى أنه يجب عليَّ خلعها، فعلت ذلك أنا وفتاتان؛ كانتا تقفان بجانبي.

قمت بخلع ملابسي قطعة قطعة؛ حتى وصلتُ للملابسي الداخلية وتركتها، ووضعت ملابسي على الرف الموجود في الممر المؤدي إلى الحمامات. جاءت امرأة تحدثت بضع كلمات من الإنجليزية لتتساءل عمَّا إذا كنت أرغب في إحدى الخدمات التي تقدمها: تدليك أو تقشير؛ إنه جزء من طقوس التطهير الإسلامي؛ لفرك الجلد لإزالة ما هو ميت، قبلت بكليهما.

أخذتني بيدها وقادتني عبر الستارة إلى الحمامات، لقد ذهلت؛ لم يكن كما تخيلته، بالطبع لم أكن أتوقع أن أجد نفسي في فندق خمس نجوم فهو حمام تقليدي، ولكن لم يكن لدي أي فكرة عنْ أنَّ الأمر سيكون سيئًا للغاية.

كان الشعر متناثرًا على الأرض، وزجاجات الشامبو الفارغة، وأغلفة الصابون، وكانت الغرفة مغمورة بالماء الداكن، وكانت الحرارة جهنمية.

ترددت لثانية، وكنت على وشك الاعتذار والمغادرة، ولكنني لم أفعل، وقلت في نفسي: "إذا شعرتْ أولئك النساءُ بالحيوية والسعادة هنا، فلماذا لا أفعل أنا أيضًا؟ إذا أردت حقًا تجربة عالمهم، يجب أنْ أنسى عالمي لبعض الوقت".

سألتها:

- ما اسمك؟

أجابت:

- "سهام".

- ماذا؟

- "سهام".

استغرق الأمر بعض الوقت لأنطق اسمها بشكل صحيح.

لاحظت "سهام" أنني كنت متوترة؛ كان واضحًا؛ كـان الخـوف واضـحًا في عينيّ، شعرت أنني سأبدأ في البكـاء بـأي لحظـة، كنـت أتمنـى أن أجـد مـن يخرجني من هنا.

شعرت هي بدورها بعدم الارتياح، ولكن ليس مثلي. كانـت قـادرة عـلى إخفاء ذلك.

لقد جئنا من عالمين مختلفين، وما يحـدث بيننـا الآن هـو بمثابـة تـذكير دائم بأنني أجنبية، ولا أنتمي هنا، لكننا نجحنا في سد الفجوة ببطء، وبدأت أشعر بالراحة أكثر، وعلى استعداد للمشاركة في مراحل الطقوس.

كان هناك ما يقارب العشر نساء، كنَّ جميعًا، دون استثناء، يحـدِّقنَ بي دون خجل، ويضحكن فيما بينهن، ويهمسن بكلمات لم أفهمها.

لم أتمكن من معرفة ما إذا كنّ سعيدات بوجودي أم لا، عـلى الـرغم مـن أنني لم أكن أريد أن أعرف الحقيقة.

أمسكت "سهام" بيدي، وعبرنا الغرفة الأولى، التي لم تكن ساخنة، وذهبنا إلى الثانية، حيث يتم التقشير.

أعطتني حصيرة بلاستيكية للجلوس عليها، حتى لا أجلس على الأرض. جلست عليها ولم أستطع إخفاء اشمئزازي بالطبع.

بينما انتظرتُ، ملأت "سهام" دلوًا بالماء الفاتر، وفجأة، ألقته عليَّ دفعة واحدة، لم أكن أتوقع ذلك، دخل الماء في أنفي بدأت في السَّعال، ولكنها تابعت عملها. باستخدام معجون الصابون، قامت بتقشير جسدي من الرأس إلى أخمص القدمين. استرخيتُ قليلًا حتى إنني شعرت أنَّ الصابونَ - الذي جعل بشرتي زلقة بعض شيء - يُشعرني بتحسَّنٍ.

ثم ألقت فوقي دلو ماء آخر، لكن هذه المرة حبست أنفاسي.

كانت الأخريات يفعلن المثل: لقد تخلصن من القشور، وألقين المياه فوق بعضهن البعض، عدا امرأة مسنة واحدة فقط تستحم وحدها، بجوار الحائط على يسار الغرفة. كان جسدها ممتلئًا. تساءلت إذا كان هذا هو السبب في عدم وجود مَنْ يساعدها، لكن ربما لا، ربما كانت غير سعيدة، أو ربما أرادت أن تكون وحدها.

حاولت تخيل قصص النساء من حولي، لقد اخترعت الأزواج، والخيانات، والأطفال، والسفر، والعمل، والشعور بالوحدة، والحزن والسعادة.

أنا أحسدهن، ولكنني شعرت بالارتياح أنني لم أكن واحدة منهن.

لفتت انتباهي إحداهن، شعرها طويل وبني اللون، وكانت أصغر سنًا من معظم الأخريات هناك. كانت تنظف جسدها كما لو كانت تداعبه، لم تقل كلمة واحدة. كان جسدها مثاليًا. أجمل ثدي رأيته على الإطلاق،

حاولت ألا ألفت نظرها، كنت خائفة من أن أكون قد أزعجتها، ولكنها أبدت عكس ذلك، كانت تحدق بي بلا خجل بدورها، كأنها تدرسني.

أشارت لي "سهام: لأستلقي على ظهري. استلقيت دون تردد، أخذت تفرك جسدي بقفاز بشدة؛ لدرجة أنني ظننت أن بشرتي تنزف. لوَّحتُ بيدي، طلبت منها أن تكون ألطف قليلًا، ضحكتْ، وتجاهلتْ طلبي، وعادت للعمل كأنها تقول إنها لم تفهم ما قلتُ.

لقد كان القدوم الى هنا اختياري؛ لذلك يجب علي ترك عاداتي والاستسلام لعاداتهم وطقوسهم.

لم تقل "سهام" كلمة واحدة، لكنها لم تكن بحاجة إلى ذلك، فقد كانت تقوم بعملها، غير مهتمة بأن رغباتي قد تكون مختلفة.

قررت التوقف عن محاولة فرض ما أريد عليها واسترخيت، وسرعان ما اعتدتُ على الأمر.

عندما انتهتْ من التقشير، جعلتني "سهام" أقف وألقي نظرة على الأرض، كانت قطع الجلد متناثرة مثل الخيط.

قالت:

- انظري إلى كل هذا الـ"إسباجيتي".

ضحكت وقلت:

- "إسباجيتي"؟ أجل إنها تشبهها بعض الشيء.

كان غريبًا؛ تخيُّل قطعًا مـن الـ"إسـباجيتي" مبتـورة مـن جسـدي. لقـد أوضحتْ لي أنه كان لدي الكثير من الجلد الميت أكثر من النسـاء الأخريـات. كما لو أنها تقول إنهن أنظف مني. لقد أدهشتني سـخرية الموقـف؛ عنـدما وصلت إلى المكان بدا قذرًا بشكل فظيع، وفجأة اتهمت أنا بالقذارة.

كنت قذرةً لأن لديّ قطع "إسباجيتي" أكثر من الأخريات.

ما زلت مفتونةً بجمال المرأة الشـابة التـي رأيتهـا. تخيلـتُ مـا سـيكون ملمس بشرتها النضرة، التي ستكون أكثر نعومة بعد التقشير، لم أرَ في جـمال هذه المرأة التركية من قبل.

ابتسمت من خجلي وسعادتي بهـذه التجربـة الجديـدة، عنـدما نظـرت إليها؛ كان بيننا اتصال.

ابتسمت ردًا على ابتسامتها، سعيدة لأنها كانت هناك، في الغرفة نفسها، شاهدة على أول حمام تركي لي.

بينما كنت واقفة، ألقت "سهام" فوقي دلـوًا آخـر مِـنَ المـاء. كنـت قـد شعرت بالثقة الكافية لفرك جسدي أمام الجميع. قلت لـ"سهام" أننـي أريـد صبَّ الدلو على نفسي، فقامت بملئه وإعطائه لي بنظرة راضية كأنها تقول إنَّ استمتاعي بالطقوس كان بسببها.

لاحظـت أنَّ النسـاء الأخريـات ينظـرن إليَّ، وبـدأتْ بعضـهن يعطيننـي النصائح، وشرح ما يجب أن أفعله من خلال الإيماءات، وأنا كنت أقلَّد.

فجأة، سارت إحداهن نحوي، وأعطتني قفازًا وطلبت مني أن أفرك لهـا ظهرها. ارتجفتُ بعـض الشيء، لم يكـن لـدي أدنى فكـرة عـن كيفيـة القيـام

بذلك، كنت خائفة. جلست هناك تنتظرني أن أقوم بفرك ظهرها، كما فعلت "سهام" لي. تعِبتْ من الانتظار، واستدارت وأخذتِ القفاز ولوَّحـت يـديها في الهواء، موضحة ما كان من المفترض أن أفعله، لا شيء معقَّد، كل ما كان عليَّ القيام به هو البدء.

كان القفاز قاسيًا، وكان لا بد من تطبيق قدر معين من الضغط ليكون الأمر فعَّالًا. شعرت كما لو كنت أؤذيها، ولكن كان من الواضح أنني لم أفعل.

بالطبع كانت معتادة على ذلك. ربما كانت تأتي الى هنا كل أسبوع، كـما كانت العادة في دينها.

كنت قد تعبت بالفعل عندما طلبت مني القفاز، وابتسمت لي.

في الغرفة الأخرى، كانت الحرارة معتدلة، حيث حصلت فيها على جلسة التدليك، كنت مستلقية على بطني، شعرت بيدي "سهام" على ظهري.

كنت متوترة، كالعادة، كأن صخورًا مغروسة بظهري ورقبتي.

سألتني:

- هل تحملين العالم على كتفيك؟

أجبتها:

- كنت أسمع هذا كثيرًا، ولكن لا، أنا لا أحمل العالم، بـل أحمـل المـاضي، لديَّ قصة ولكنها ليست قصتي، وهي سبب وجودي في تركيا.

أخبرتها أن جدي قد هاجر من إزمير، وأنني كنت هنا بحثًا عـن ماضـيه، وعن منزل العائلة القديم، استمعتْ باهتمام؛ وكأنَّ الأمرَ كما لو أننا أصـبحنا متساويتين للمرة الأولى.

- هل أنت تركية؟

- لا.

- هل تتحدثين التركية؟

- لا.

- على الإطلاق؟

- لا، لا شيء مطلقًا.

- لكنك تركية على أيَّة حال، لديك ملامح تركية.

"كراك.. كـراك"، كنـت أسـمع صـوت عظـامي. كانـت يـدها ثقيلـة عـلى جسدي الصغير، وكنت غير مرتاحة بعض الشيء، ولكنني لم أرد التذمر منهـا، لأن حديثنا الصغير قَرّبنا أكثر.

بعد أن أخبرتها عن سبب إقامتي في تركيا، جعلت من التدليك أكثر قـوة، كـما لو أنها تقوم بدورها لمساعدتي في تحرير نفسي من المـاضي؟ شـعرت أنهـا لم تكـن تخفِّف عن عضلاتي فحسب، بل كانت تحارب كل ما أخبرتها به للتو.

غادرتِ الشابةُ الجميلةُ، بينما كنت مستلقيةً على بطنـي، لم يكـن لـديَّ حتى فرصة لقول وداعًا، للنظر في عينيها للمرة الأخيرة. بحلول الوقـت الـذي انتهت فيه "سهام" من التدليك، كانت قد غادرت.

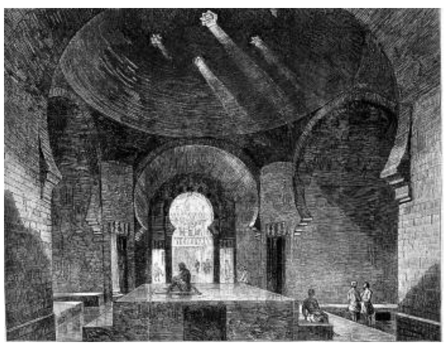
بحثت عنها كثيراً، لم تكن لتختفي هكذا، كيف أستطيع مواصلة رحلتي دونها؟ لم غادرت دون أن تُودِّعني؟!

أظن أن "سهام" أمضت وقتًا أكثر من اللازم معي.

لقد كنت متعبة من الرحلة، متعبة من تجربة أشياء كثيرة جديدة، متعبة مما ينتظرني، هل سأجد منزل أجدادي؟ هل سيعمل المفتاح؟ حاولت أن أؤمن بالقصة التي اخترعتها بنفسي، وهي الوحيدة القادرة على تزويدي بأي إجابات، ربما تكون الأكثر جنونًا ولكنها أيضًا القصة الأكثر واقعية.

لم أكن أعرف إلى أي مدى كانت قصص جدي حقيقية. إلى أي مدى كان ما أفعله الآن صحيحًا. لم أكن أعرف حتى ما إذا كانت رحلتي حقيقية.

يبدو أنه كلما اقتربتُ مِنَ الحقائق، كلما حصلت على المزيد من الحقيقة.





اليوم كنت أفكر بك وأنا مع امرأة أخرى، سأُجَنّ.



لم نعد في المستشفى بعد الآن، ولكن في فندق في مدينة "بـالتيمور" في الولايـات المتحدة، ظننت أنَّكِ ما زلتِ نائمة، وفتحت الستائر قليلًا حتى لا أوقظك.

سمعتِ تحركاتي.

وسألتني:

- هل استيقظت؟

ألقيت نظرة خاطفة على الساعة.

وأجبت:

- نعم، إنها الساعة التاسعة، تقريبًا.

سأفتح الستائر، تبدو المدينة جميلة اليوم.

لم تقولي شيئًا، ما كان يجب عليَّ قول ذلك. رأيتك تفتحين عينيكِ وتغلقينهما عدَّة مرّات حتى اتضح لي أن الأمر سِيَّان، وأنَّ عينيك المفتوحتين بلا فائدة، مثل الكرات الزجاجية، مثل آلة موسيقية لا تعرفين كيفية استخدامهما.

كنت أنظر إليك وأرى أنك لا تنظرين إليَّ. لن تنظري لي في عينيّ مرة أخرى.

بدأت أتخيل كل شيء لن تريه مرة أخرى: الشمس في الخارج، مدن العالم، الناس في الشوارع، الكلاب، الطيور.

لن تري "ريو دي جانيرو"، و"إيبانيما"، و"كوباكابانا"، والشاطئ، وغروب الشمس، والقمر، والأشجار.

لن نشاهد الأفلام مرة أخرى أبدًا، لن تقرأي كتابًا آخر، ولن تري قَصَّةَ شَعري الجديدة، وملابسي الجديدة، أو ترينني عندما يزداد وزني، أو عندما أحمَلُ، أو أتقدم في السن، لن تري شيئًا مرة أخرى.

قلت وأنا على حافة الانهيار:

- أمي!

أجبتِ بنبرة باردة:

- نعم.

- سأذهب لأحضر شيئًا لآكله، ربما شطيرة أو بعض الزبادي، أتريدين شيئًا؟

- أي شيء، فأنا لست جائعة.

- حسنًا، ربما سأشتري بعض الفاكهة.

أردت فقـط الخـروج مـن الغرفـة حتـى أتمكـن مـن البكـاء دون أن تسمعني، وهذا ما فعلته، بكيت حتى عدت ومعي شطيرتين وموزة.

عندما عدت، كنتِ ما زلت مستلقية على السرير، في الوضعية نفسها.

تركت الحقيبـة الورقيـة عـلى الطاولـة بجانـب التليفزيـون، واسـتلقيت بجانبك، لم نتناول أي شيء.

ناديتكِ، هذه المرة بصوت أكثر ثباتًا:

- أمي!

- ماذا؟

- لا يمكنك رؤية أي شيء بعد الآن، أليس كذلك؟

لم تجيبيني، أغلقتِ عينيك فقط، كنتِ منهارة.

عانقتك بقوة.

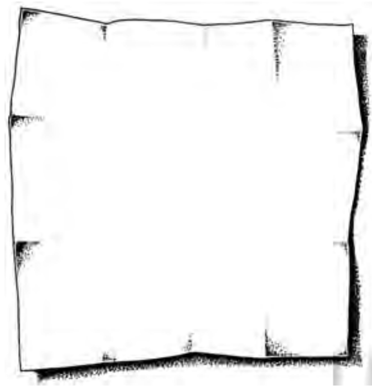
وقلت:

- كل شيء سيكون على ما يرام، سترين. وضعتُ قائمة بكل الأشـياء التـي يمكنك القيام بها دون أن تري. لا يزال هناك الكثير مـن الموسـيقى للاسـتماع إليها. سأقرأ لك القصصَ، والصحف والروايات، والشعرَ. يمكننا التحدث كثيرًا، وأكل الأشياء اللذيذة، وشرب الخمور الجيـدة، يمكنـك أن تُمـلي عـليَّ كـل مـا تريدين كتابته. يمكنك تخيل كل الأفلام التي لم تريها، لأنه في رأسـك لا يـزال بإمكانك رؤية الكثير والكثير، ما زال بامكانك رؤية ما تريدين رؤيته.

كنتِ تستمعين بصمت؛ العالمَ الذي سنعيش فيه.

لم نكن نعلم أنه في غضون أسبوعين سيختفي الأمر. في غضون أسـبوعين لن تتمكني من رؤية أو تخيل أي شيء، أو الاستماع إلى الموسيقى، أو تـذوق الخمور الجيدة، أو عناقي، أو سماع القصص التي أردتُ إخبارك بها.





كنت أحمل اسمين على قطعة من الورق: "رافائيـل" و"سـولومون". كانـا يحملان اسم عائلتي. هذان هما من يجب علي البحث عـنهما، عنـدما أصـل لإزمير، وفقًا لجدي، لن يكون من الصعب العثور عليهما، لأنهـما يعيشـان في مجتمع صغير. كان قد تلقى أخبارًا عنهما قبل بضع سنوات فقط، من بعـض أبناء عمومته في فرنسا.

ربما سأجدهما بسهولة، ولكن ماذا بعد ذلك؟ ماذا كان مـن المفـترض أن أفعل بعد أن أحدد موقعهما؟ كنت أخشى ألا أعرف مـاذا أقـول. لـن يكـون لدي أي شيء للحديث عنه مع أشخاص لا أعرف أي شيء عنهم.

كنت أعرف أننا ننتمي لشجرة العائلة ذاتهـا، ولكـن مـا يعمـلان؟ كيـف يفكران؟ هل سيكون بيننا اهتمامات مشتركة؟ أم أنهـما سـيكونان كالغربـاء الذين رأيتهم في شوارع إسطنبول، والذين لن أراهم مرة أخرى؟

كنت مترددة، ولكن في الوقت نفسه كنت متلهفة لمعرفة ما سيحدث في هذه الرحلة، في القصة التي سأرويها بنفسي.



عندما اقتربت مني علمت أنك ستهمس في أذني بشيء لطيف:

- غدًا أريدك أن تخرجي وألا تعودي إلاَّ في المساء، وارتدي تنورةً قصيرة.



أنا لم أغادر هذا السرير مطلقًا، كانت الرحلة مجرد كذبة، جسدي يتحلل أكثر؛ يومًا بعد يوم. أنا مليئة بالبثور؛ وقريبًا سأصبح كومة مِنَ العظام.

ساقاي ارتجفتا في أثناء بكائي، وجسدي كتلة مِنَ اللحم، كيف يمكنني القيام بمثل هذه الرحلة؟

ليس لدي مفاصل. عظامي متصلة ببعضها البعض، والطريقة الوحيدة التي يمكنني بها مغادرة هذا السرير هي أن يحملني شخصٌ ما، لكن من سيحمل جسدًا كريهًا كهذا؟ ولأيِّ غرض؟

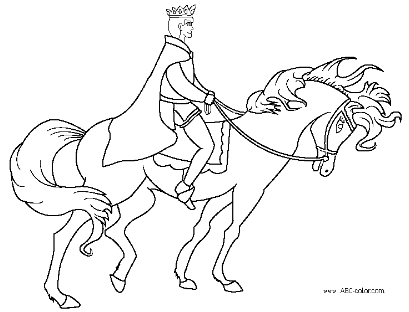
لدي أسرة كاملة تعيش بداخلي، أجيال وأجيال، ولكن كما لو أن كل ذكرياتهم السعيدة قد تبددت في الهواء، ولم يتبقَ منها سوى الأحزان، والصمت، والوَحدة.

عندما وُلدّتُ، نظر لي والديّ نظرة واحدة؛ وعرفا أنني الحزن والعزلة، أنا لا شيء؛ فلا شيء يأتي من الحزن والوحدة.

عندما كنت صغيرة كنت أرى الخوف ظاهرًا في عيون كل من ينظر إليَّ؛ فأنا دائمًا أبدو وكأنني على وشكِ الموت.

لم أغادر مكاني قط. لم أسافر قط. لا أعرف سوى ظلام غرفتي. مفتاح جدي ما زال بجانبي على السرير؛ وكأنه جزء من جسدي. كلانا يغطينا الصدأ والغبار، كأننا كيان واحد؛ كتلة من اللحم المتعفَّن والمعدن الصدئ.





- هل تراودك أفكار إيجابية؟ ليس لديك أي أحلام؟

- بالطبع لدي. أحلم أنه في يوم من الأيام سيأتي من أجلي أميرٌ، على حصانه الأبيض، سيعرف أنني مَنْ يبحث عنها، كل ما علينا القيام به هو تبادل النظرات، لمعرفة أننا يجب أن نكون معًا.

سيأخذني على ظهر حصانه إلى مكان جميل، حيث سيكون هناك حفل كبير، حيث سيتم لم الشمل مع كل مَنْ غادر هذا العالم، وكل مَنْ لا يزال فيه، سنعيش هنا بسعادة، في أرض لا تعرف الموت، ولا تعرف الوقت، ولا تعرف الألم.

- هل تحلُمينَ؟

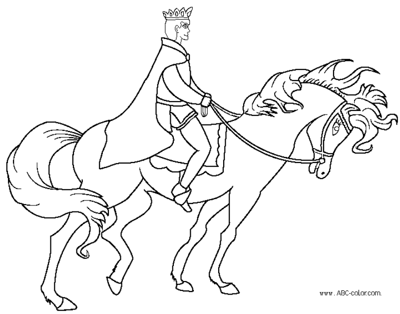
- أجل، أنا أحلُم، لدي حلُم لم أخبر أحدًا به مطلقًا.

- ما هو؟

- أريد الكتابة يا أمي.

- الكتابة؟

- نعم، أريد أن أكتب.





لقد أقسم ألَّا يحب امرأة أخرى أبدًا، وظل يتمنى التراجع عن وعده، وهو ما حدث في النهاية، عندما رأى "هيلدا" ترقص في النادي. كان يعلم أنه سيكوّن معها عائلةً، كان يعرف أنه سيحبها ولكن ليس كحبه لـ"روزا".

ظل يخطو على أصابع "هيلدا"، لم يكن يعرف كيف يرقص على الموسيقى.

دعاها للجلوس لتجنب كارثة أخرى.

لم تكن "هيلدا" جميلة بشكل خاص: قصيرة، أكتاف منحنية، أنف طويل، أصابع ملتوية؛ لكنها كانت جذابة بطريقتها الخاصة، بسحر امرأة كانت تبتسم دائمًا، وفي سلام مع الحياة، وهذا ما جذبه إليها أراد شخصًا مبتهجًا بجانبه.

سألها عن عمرها، وإذا ما كنت تأتي هنا كثيرًا، وإذا كان بإمكانه رؤيتها في الأسبوع التالي.

في المرة الثانية التي رأيا فيها بعضهما البعض، لم يرقصا على أغنية واحدة، فقط تحدَّثا، وسأل عن أسرتها، من أين هي، ومهنة والدها، وأين تعيش.

المرة الثالثة.. تقابلا مرة أخرى في النادي، سألها عما إذا كانت عازبة.

الرابعة في ساحة "ليدو": سألها إذا كانت تود الزواج به.

الخامسة في ساحة "ماتشادو": سألها إذا كان بإمكانه التحدث مع والدها لطلب يدها في الزواج.

السادسة في منزلهم، كانت تشاهده وهو يتحدث مع والدها.

وفي السابعة، والثامنة، والتاسعة، والعاشرة، والحادية عشرة تحدثا عن حفل الزفاف والمستقبل.

في المرة الثانية عشرة، شربت من النبيذ الذي سلمه له الحاخام لتأكيد ارتباطهما مدى الحياة.

كان هو و"هيلدا" زوجين كأي زوجين.

بدأتْ أعمَاله في النمو، مع أرباح مرضية بشكل متزايد، وقرر توسيع المحل، بقي في المنطقة نفسها التي كان يعمل بها منذ البداية، لكنه انتقل إلى مكان أكبر.

في المنزل، حملت "هيلدا" لأول مرة، كان يأمل أن يكون صبيًا ليرث تجارته، ويديرها معه.

استأجر موظفين جدد للمساعدة في المتجر؛ الذي بدأ يزدحم أكثر فأكثر.

عانتْ مِنَ الغثيان في الصباح، وشعرتْ بالوَحدة.

كان يعمل حتى وقت متأخر من الليل في المحل، لم يكـن هنـاك حـدود لطموحه.

شعرتْ ببطنها تكبر يومًا بعد يوم، بسرعة مخيفة.

بالكاد كان يراها، كان يعود للمنزل بصحبة دفتر الحسابات ليؤنسه.

بكتْ عندما شعرت بحركة طفلها الأول بداخلها.

كان سعيدًا بأرباح المتجر المتزايدة.

ولدت طفلها الأول في مارس.

كان هناك، قلبه ينبض بشدة.

خرج الطبيب من غرفة الولادة، ليعطيه الخبر السار:

- إنه صبي.

أتى من يرث مملكته.

في الوقت الذي جاءت فيه طفلتهما الثانية، كـان للمتجـر بالفعـل فـرع آخر في "كوباكابانا"، وانتقلت العائلة إلى منزل في حي "ليبلون" الفخم.

- "ليبلون"؟ لكنه بعيد جدًّا، ومهجور.

الفتاة جاءت في وقتها، لأن "هيلدا" كانت وحيدة. كانـت ابنتهـا تؤنسـها وهي تنظف الملابس، وتطهو العشاء، وتنظف المنزل.

كان الابن ملكًا صغيرًا، يطالب باهتمام والدته المستمر.

كانوا ميسوري الحال عندما حملت "هيلدا" للمرة الثالثة:

- فتاة أخرى.

لقد خاب أمله قليلًا من الخبر، بينما كانت سعيدة بما أعطاها القدر، حليفًا جديدًا لها.

حتى الآن، كان للمتجر ثلاثة فروع أخرى، في أجزاء مختلفة من المدينة، ولم يعد متخصِّصًا في بيع المعدَّات فقط، بل جميع مواد البناء، هذا النجاح في الأعمال التجارية كفل للعائلة العديد من الامتيازات، مثل سيارة مستوردة، وسائق، وخدم، وبالنسبة للأطفال، مدرسة ثنائية اللغة، ودروس البيانو واللغة الفرنسية.

وُلد الطفلُ الثالثُ في أحضان عائلة ناجحة وغنية، بالكاد تتذكر الماضي، والمعاناة والمشقة، التي تحملها الأبُ قبل أن يتزوج لا تُذكر مقارنةً بهذا النعيم.

المهم الآن هو أنهم بخير، وبصحة جيدة، وأي شيء آخر هو في الماضي، وكان لا بد من نسيان الماضي.

لم يفاجأ أحد عندما حملت "هيلدا" للمرة الرابعة؛ فالعائلة الثرية يجب أن يزيد عدد أفرادها.

وُلدَ الولدُ الثاني في اليوم الأخير من شتاء قاسٍ، بشكل غير عادي في "ريو دي جانيرو"، لكنه كان ضعيفًا إلى حدٍ ما، مع رئتين غير مكتملتين،

وعاش لثلاثة أيام فقط؛ لم يرَ منزل العائلة قط، وقضى بالكاد أي وقت بين ذراعي أمه.

صرخ جدي في أروقة المستشفى، وظل يحدّث نفسه قائلًا: "إنَّ ما حدث ما هو إلا عقاب من اللـه، وشعر بالذنب الشديد".

"لكن لماذا الصبي؟". كرر تلك الجملة، دون أن يكترث أن بناته قد يسمعنها.

مرت أربع سنوات؛ وما زال الصمت سائدًا في أنحاء المنزل. شبحُ الصبي يتجول في كل غرفة، وكما كان الحال في الماضي، لم يسمح لأحد بالتحدث عنه، إذا ذكره أحدهم، ولو لفترة وجيزة فقط، فإنه سيواجه نوبةً مِنَ الغضب، كما لو كان التحدث عن الأمر يُعدُّ عدم احترام لألمه.

في أحد أيام الشتاء، أخبرته "هيلدا" أنها حامل مرة أخرى، كان متأكدًا أنهم سيُرزقون بصبي آخر.

منع نفسه من الصراخ؛ عندما دخل غرفة المستشفى، ورأى فتاة أخرى في ذراعي زوجته، بعد صبيٍ ميت، فتاة.

كانت هناك، هَشَّة تحاول امتصاص القليل من حليب أمها، ولكنها لم تكن تعرف القوة التي ستحتاجها لتستمر في هذه الحياة.

كان الأمر كما لو أن جسدها يحتوي على سر، لا يمكن كشفه إلا بعد سنوات، حتى عندما كبرت واضطرت إلى مواجهة الدكتاتورية، والسرطان، فإنها لم تفقد الهشَاشَة التي كانت ظاهرة في جسدها الصغير.

اعتقد والدها أنه لا يحبها، لأنها تذكَّره بابنه الميت، وخوفه من خسارتها عندما وقعتْ أسيرةً للديكتاتورية، أدرك أخيراً أنه كان يحبّها منذ أن رآها في غرفة المستشفى، في ذات اليوم الذي لعن فيه قدره عندما رآها.





عندما اقتربتَ لتهمس في أذني، عرفتُ أنكَ ستطلب مني أن أفعل شيئًا:

- فكري في امرأة.

أغلقت عينيَّ، وتخيلت امرأةً بجسد مثير.

- هل فكرتِ في شخص ما؟

قلت:

- انتظر.

ثم استلقينا وسألتني عن المرأة التي كنت أفكر بها، إذا كانت حقيقيـة، وكيف كانت تبدو؟ شقراء؟ سمراء؟ إذا ما كنت منجذبة للنساء.

ثم بدأنا مِنْ جديد، أنت متحمَّس لإجاباتي، وأنا متحمَّسة لأخبرك بها.



كانت المرة الأولى التي أُصلَّي فيها. لم أكن أعرف ماذا أفعل. كيف أفعل ذلك، لكنني صليت، سألتُ اللـهَ، إذا كان موجودًا، ألا يدع التليفون يرن.

صليت بهدوء، وهمست، ووضعت يدي أمام صدري. صليت ألاَّ يرنَّ التليفون، لكي لا أرد، وأسمع الشخص على الطرف الآخر يخبرني بما حدث.

كررت الأمر مرارًا وتكرارًا ودعوتُ: "أرجوك، إنْ كنتَ موجودًا، لا تأخذها مني، من فضلك لا تدع التليفون يرن أبدًا".

لكنه بدأ يرن: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، أحد عشرة، اثنتا عشرة مرة، واصلت العد.

حاولت إقناع نفسي بأنه لا يرن. لا أستطيع سماعه، إنه لا يرن ثم توقف، ولثوانٍ قليلة كنت أظن أنه لم يكن يرن في الأساس، حتى سمعت صوتًا داخل الشقة. "اللـهُ غير موجودٍ، إنه غير موجود".

لقد كان التليفون، إنه يرن، لم أستطع تجنبه أكثر من ذلك.

لم أكن أنا مَنْ رَدَّ، ولم أسمع ما قاله المتصل، ولكن ماحدث قد حدث.

شعرت أنني سأفقد وعيي؛ ولكنني تماسكت، وبدأت بالصراخ.

لم يكن هناك ما يمكنني القيام به، ولا حتى الصلاة.





كنت في طريقي إلى وسط المدينة، عندما لفت انتباهي شَعرٌ بني طويـل على الجانب الآخر من الطريق. هل هو شعرها؟ لم أستطع أنْ أُخرج جمالهـا من ذهني، لقد فكرت بها كثيراً.

نعم، إنها المرأة من الحمَّام التركي؛ بجمالها الساحر.

عبرت الشارع دون النظر في أي من الاتجـاهين، بسرعـةٍ حتـى لا تغيـب عن نظري، كان هناك الكثير من الناس في الشارع، صـدمتُ النّـاسَ وتعـثَّرتُ، حريصة على ملاحقتها.

عندما ابتعدت عن الحشد، وذهبت إلى ممر واسع شعرت بارتياح لأنهـا لن تهرب مني.

كانت ترتدي تنورة طويلـة، وقميصًـا بـلا أكـمام، وتحـت ذراعهـا كانـت تحمل ملفًا متوسط الحجم، لم تكن بعيدة عني الآن.

عندما عبرت من الباب، أدركت أننا دخلنا السـوق الكبـير، وهـو منطقـة مُسوّرة، مع شوارعها وزواياها الخاصة، لا يوجد فيها سوى المتاجر.

لم يمض وقت طويل قبل أن يبدأ أصحاب المتاجر في دعوتي إلى متاجرهم، سألني بعضهم: "إسبانية؟ إيطالية؟ برتغالية؟". وما أضحكني منهم: "صينية؟ يابانية؟".

كانت تسير بسرعة، متجاهلة محيطها.

أسرعتُ قليلًا أسبقها، عندما نظرت إلى الوراء، توقعت رؤية النظرة ذاتها، ولكن لم أتمكن من إخفاء خيبة أملي.

نظرت لي وكأنها تقول: "ما الذي تنظرين إليه؟". لم أستطع الإجابة.

بعد أن رحلتْ، تجوُّلتُ في السوق، مثل كلب ضال.

سمعت أصوات أصحاب المتاجر قادمة من جميع الجهات. وقفـوا جميعًـا خارج متاجرهم، محاولين جذب انتباه المـارة، عنـدما يُظهـر أحـدهم اهتمامًـا بالمتجر، يدخل الى المتجر ليريهم السلع، ليكشف لهم عن أسرار كل سلعة.

جذبتني إضاءة وألوان أحد المتاجر المتخصصة في بيع الشمعدانات، بكل الأشكال والأحجام والألوان، منها مـا يوضـع عـلى الطاولـة، ومـا يوضـع عـلى الأرض، وبألوان مختلفة: الأحمر والأزرق والأخضر، والبرتقالي، والأصفر. وعلى عكس المتاجر الأخرى التي تبيع الشمعدانات، وضع صاحبُ المتجـر شـموعًا مضاءة بكل واحد؛ لجذب المشترين.

وقفت عند المدخل أتأملهم جميعًا، وخرج رجل يرحب بي، وأخبرني بأنّ هناك المزيد بالداخل.

كان متجرًا صغيرًا ولطيفًا، كان كل شيء مرتبًا بالداخل، لقد كنت منبهرة بما رأيت.

راقبني البائع بصمت، كان من الصعب اختيار واحدة، كانوا متشابهين بعض الشيء.

اخترت واحدة بشكل عشوائي، تبدو قديمة الطراز وتُعلَّق من السقف، ذكرتني بالقصور التي زرتها، وسألت عن سعرها.

قال:

- ثلاثون يورو.

ابتسمت وقلت:

- ليس لدي يورو، أنا برازيلية.

لقد تم تحذيري بالفعل بعدم شراء أي شيء دون مساومة، حيث إنهم لن يعطوك السعر الحقيقي.

قال:

- خمسة وثلاثون ليرة تركية.

- هذا كثير جدًّا.

- ثلاثون.

- عشرون.

- خمسة وعشرون، لا أستطيع بيعها بأقل من هذا.

- حسنًا، خمسة وعشرون.

غادرت المحل ومعي الشمعدان في كيس بلاستيكي، وتابعت جولتي في السوق.

كانت المتاجر الأكثر جمالًا هي تلك التي تبيع التوابل. أمامها أكياس هائلة لعرض الفلفل، والزعفران، والفلفل الحلو، والأعشاب، والفواكه المجففة، والزيتون، والفستق، ومجموعة كبيرة من الحلويات التركية.

مثل الآخرين، تذوقتُ القليل من كل شيء، وانتهى بي الأمر بشراء بعض الحلويات التركية، لآكلها أثناء تجولي.

تابعت المشي، وأنا أتأمل المتاجرَ التي تبيع الفضة والذهب، بدا بعضها مكلفًا للغاية. كان بعضهم يبيع المجوهرات المقلدة على الرغم من إصرارهم على أنها حقيقية.

كانت التصاميم مكررة بعض الشيء، الأحجار الحمراء نفسها، والزرقاء، والخضراء، سلاسل منَ الفضَّةِ المزخرفة تَتَدلَّى مِنَ الأقراط والقلائد.

كان هناك خاتم يُعرف بخاتم الحريم، يتكون من أربع حلقات صغيرة من الذهب أو الفضة، مزينة بأحجار ملونة صغيرة، كونوا معًا قطعة كبيرة نسبيًّا.

سألت عن سبب تسمية الخاتم، وعرفت أنه يجلب الحظ في الحب والعثور على زوج مناسب.

مررت بالعديد من المتاجر، وكان من الصعب الخروج منها، لأن البـائعين أصروا ولم يكونوا راضين عن مغادرتي دون شراء أي شيء، ولكن فجـأة، لفـت انتباهي خاتم بيضاويّ الشكل في أحد المتاجر، تم صنعه من الفضة الداكنـة ليبدو قديمًا، مع حجر أخضر في المنتصف. سألت إذا ما كانت الفضة والحجر حقيقيين، وأكد لي صاحب المتجر أنهما كانا كذلك، لم يكن لدي دليـل لـذلك قررت الوثوق به.

كان مقاس الخاتم كبيراً بعض الشيء، ولكن البائع قال إنه يستطيع تعديله.

- متى سيكون جاهزًا.

- ظهر اليوم.

عندما كان يأخذ قياسات إصبعي، لاحظ الخاتم في يدي الأخرى.

قال:

- إنه جميل، من أين اشتريته؟

قلت له:

- إنه ملك لأمِّي، وإن لم أكن مخطئة، فإنها اشترته مـن مصر، تـرى هـذه الفتحات الصغيرة؟ كان يوجد حجارة خضراء في كل واحدة.

- إذا أردت، يمكنني أن أصلحه بوضع حجارة جديدة به.

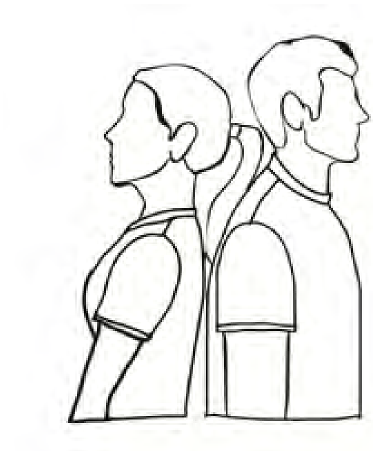
خفت أن تُفسد الحجارةُ شكله.

- لستُ متأكدة، كان شكله هكـذا عنـدما حصـلت عليـه، وحتـى أكـون صادقة، أحب الأشياء الضائعة، والتي ليسـت موجـودة بعـد الآن. أحـب الحطام، أسرار الماضي، أكره الأشياء المعاد تصنيعها كأنها صنعت بالأمس، أفضَّل العلامات، الآثار. أمَّي اشترت هذا الخاتم منذ أكثر من ثلاثين سنة، هل تظن أن خاتمي سيدوم كل هذه المـدة أيضًـا؟ أريـد إعطـاءه لابنتـي يومًا ما.

- أجل، ولكنني لا أعدك أن الحجر سيبقى معه.

وضحكنا.





عندما اقتربت مني لتهمس في أذني، أدركت أنك ستطلب منـي أن أفعـل شيئًا ما لذلك ابتعدت؛ تعبت من طلباتك، تظاهرت بأنك لم تلحظ وحاولـت الاقتراب مرة أخرى، قلت:

- لا، لا أريد سماع ذلك، لقد سئمت طلباتك.

أمسكت معصميّ بإحكام، بيدٍ واحدة فقط

صرخت:

- دعني أذهب!

ولكنك لم تفعل.

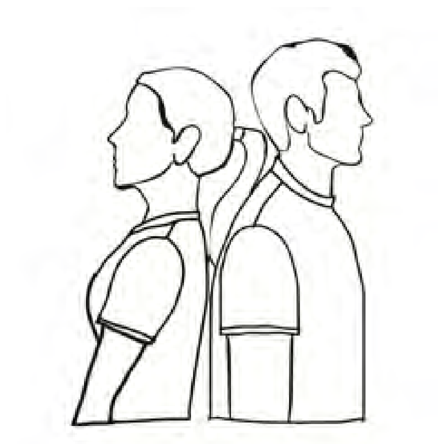
التقطت قلمًا كان بالقرب منك، ومرَّرتَ رأسه الحاد على ذراعـي، سـقط الدمُ على الأريكة.

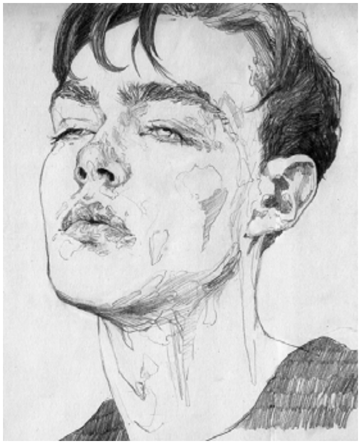
صرختُ كالمجانين:

- أنت مختلٌّ عقليًّا، أنت تضرب النساء، سأستدعي الشرطة، أنـا أكرهـك، أنت تُشْعرني بالاشمئزاز.

عندما تركت معصمي، دفعتك بقوة، ووضعت سبَّابتي أمام وجهك وقلت:

- في المرة المقبلة سأقتلع عينيك.





الوجه الأزرق الشاحب، فتحات الأنف المغلقة بالقطن، وآخر ابتسامة للميت هي أشياء أستطيع تخيلها فقط، لم أر جثة ميتة من قبل، لم أركِ ميتة من قبل.

رأيتكِ تموتين.

كنتِ تشعرين بالعطش، ولكنَّ الممرضة قالت ألَّا أعطيكِ أي شيء، كنت في حيرة بين أن أعطيكِ الماء وأن أراكِ تموتين منَ العطش، كنتُ طفلة صغيرة على وشك أنْ تفقد أمها، ولا تعرف ماذا تفعل، إذا كان هناك فقط نوع واحد من الألم في العالم، سيكون ألم رؤية شخص تحبه يموت أمامك؛ وأنت عاجز عن فعل شيء.

كنتِ هنا، لا يزال الهواء يدخل ويخرج من رئتيك، لكنني علمت أننا لن نكون معًا بعد الآن؛ بعد فترة وجيزة سوف تصبح اليد الدافئة التي كنت أمسك بها باردة.

لقد أخبرني الطبيب بالفعل:

- إنها مسألة وقت فقط.

لم يقل أمك ميتة، بل قال إنها ستموت.

إنها حية، تتنفّس، قلبها ينبض، دمها يدور، ما زالت ترمش، لكن سرعان ما سيكون كل هذا مجرد ذاكرة، سرعان ما ستتوقف أعضائها عن العمل وتموت، إنها مسألة وقت فقط، لم أستطع التزام الصمت:

- لكنها هنا، على قيد الحياة، لذلك لا يزال هناك وقت، ولكن للقيام بشيء لتجنب ذلك، بدل أن ننتظر موتها.

الأمر منطقي تقريبًا، إذا كانت لا تزال هنا، فبإمكانها البقاء، لكنني كنت أعرف أنه لا يوجد منطق في هذا المنطق، في الواقع، لم يكن الأمر منطقيًا؛ بل كانت رغبتي الحمقاء في بقائك معي، وخوفي من خسارتك.

ذهبت إلى المنزل مع هالاتي السوداء، وظهري المنحني الذي جعلني أبدو كالخطاف.

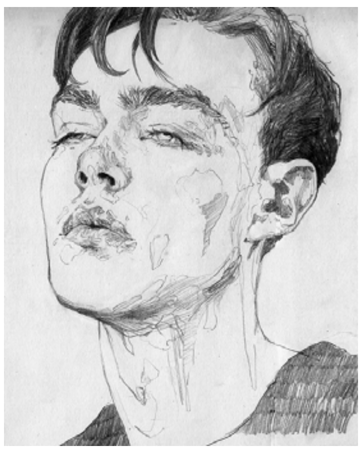
"إنها مسألة وقت فقط".. لم أستطع إخراج صوت الطبيب من رأسي.

لم أكن موجودة وأنتِ تلفظين آخر أنفاسك. لم أرَ جثتك. أخبرني رنين التليفون أنني لن أنظر في عينيكِ مرة أخرى، ولن أحتضنك مرة أخرى.

في اليوم التالي كنا في الغرفة نفسها مرة أخرى ولكنْ في المقبرة، كنتِ داخل تابوت مِنَ الخشب المصقول بغطاء مغلق، لأننا ندفن الموتى بلا ملابس، لكي يغادروا الحياة كما جاؤوا إليها، وقد تكون النهاية هي نفسها البداية.

أردت فتح التابوت والصراخ: "أخرج أمي من هناك!".

لكنهم لم يستمعوا لي، لم يرغبوا في الاستماع، لهذا لم أرَ جثتك مطلقًا، كل ما رأيته هو التابوت؛ الذي من الآن فصاعدًا سيكون منزلك الجديد.





لم أستطع النـوم الليلـة الماضـية، كانـت إسـطنبول مدينـة جميلـة وكـان بإمكاني البقاء فيها لعدة أيام، ولكنني كلما بقيت لفترة أطـول، كنـت أبتعـد عن تحقيق هدف رحلتي.

توجهت للطـابق السـفلي إلى مكتـب الاسـتقبال، وطلبـت المسـاعدة في الاتصال بشركة طيران.

- أود أن أذهب إلى إزمير اليوم.

لم يكن هناك الكثير من الوقت قبل أن أضطر للذهاب إلى المطار، قررت الخروج للتجول بالقرب من الفندق، لشرب عصير البرتقال، ولتوديـع المدينـة التي كنتُ قد بدأتُ أعتاد عليها.

كانت الشمس أكثر حرارة مما كانت عليه في الأيام السابقة، وبـدا كـل شيء فيروزيًا، أحبُّ النظر إلى وجوه الناس وتعبيراتهم عن التعب والحماس والسعادة والحزن والملل، وعلى الرغم من تنوع ملامحهم، واختلافـاتهم الثقافيـة، شـعرت أنهم متشابهون، وأنه لا فرق إذا كنت في إسطنبول أو ريو، ربما أكون مخطئـة - فهذا ما يقوله الناس - ولكن هذا هو ما فكرت به وأنا أشرب عصير البرتقال على طاولة في الهواء الطلق، في شارع ضيق قريب من الفندق.

دفعت للشاب الذي أحضر لي العصير، وعدت لغرفتي.

أردت التحدث إلى جدي قبل أن أغادر، لقد تحدثنا عندما وصلت. كـان متلهفًا لسماع الأخبار أكثر من غيره، كان يُصلِّي ليسير كل شيء بسلاسة، فقـد كانت هذه قصته.

على الطرف الآخر من الخط، سمعت صوته:

- كيف حال عزيزتي؟

- لدي الكثير لأخبرك به، أنا مبهورة بجمال إسطنبول.

- أخبريني، أين كنتِ؟ ماذا فعلتِ؟

- أشياء كثيرة.

قلت له كل شيء. تفاصيل كل الأشـياء التـي رأيتهـا: الـروائح والنكهـات التي اكتشفتها، ألوان المدينة، الناس. بينما كـان يسـتمع، أعـرب عـن فرحتـه كما لو كان هو من قام بكل هذا، كنا على وشك إنهاء المكالمة عندما سأل:

- ماذا عن إزمير، متى ستذهبين؟

- في الواقع، هذا هو سبب اتصالي، لأقول إنني ذاهبة اليوم.

استغربت صمته، كأنه غير مـتحمس للأمـر، ولكـن بعـد ذلـك سـمعت صوته، مختنقًا قليلًا، ولكنه قوي:

- هذا جيد يا عزيزتي.

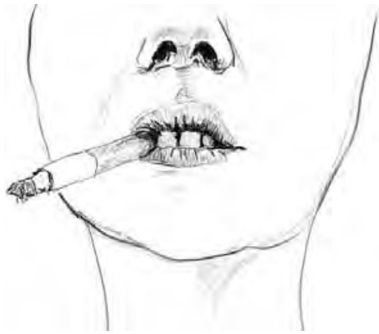
أنهينا المكالمة، واسـتدعيت موظـف الاسـتقبال، لأطلـب منـه أن يطلـب تاكسي. كنت متوترة ولكن إزمير تنتظرني.



عندما أحضرَ الحاخام المقصَّ، أشرت إلى قلبي، وقلت:

- هنا.

كان من المفترض أن أرتدي قميصًا أسود، مع قطع على الجانب الأيسر، لمدة سبعة أيام، في ذكرى الموتى، ثم رميه في البحر.



عندما وصَلت كان هو ممدًدا على السرير، يفكر؛ بينما احترقت سـيجارة في منفضة السجائر.

اعتدل فجأة:

وقال:

- كيف كان الاجتماع؟

كان قد بقي في المنزل، لم يرد المخاطرة بذهابه إلى الاجتماع فذهبت هي.

أجابت بنبرتها المعتادة:

- كما هو الحال دائمًا، لم يتغير شيء.

تنهد بارتياح؛ كان يتوقع أخبارًا سيئة.

وقال:

- لنأكل.

ذهبا إلى المطبخ ليعدًّا بعض المعكرونة وصلصة الطماطم،

قالت:

- لقد سئمت من تناول الشيء نفسه مرارًا وتكرارًا، وعدم القدرة على الذهاب إلى المطاعم، والخروج بسرعة من "السوبر ماركت" ومحاولة عدم جذب الانتباه، والاختباء طوال الوقت.

سألها:

- هل لدينا خيار آخر؟

- يمكننا أن نغادر البلاد. ألا ترى أنَّ الوضعَ يزداد سوءًا، هل تعرف كم من أصدقائنا في السجن؟ في اجتماع اليوم، ذكروا اسم "أومبيرتو"، هل تعرفه؟ حسب ما فهمت، إذا قبضوا عليه، فهو ميت.

- هل تعرفين أين وضعت منفضة السجائر؟

- أظن أنها في غرفة المعيشة.

غادر المطبخ مع خوفه، للبحث عن سيجارته وهو يتعثر.

ظلت تتحدث معه، و إلى نفسها، لم تعد تتحمل نمط الحياة السرية، لم تكن هذه هي الحياة التي حلمت بها لنفسها.

أحضرت أطباق المعكرونة على صينية، وكان هو قد دخَّن ثلاث سجائر، واحدة تلو الأخرى، كان وجهه شاحبًا تفوح منه رائحة العرق.

لم تلحظ ذلك فقد كانت منهمكة في التفكير بمغادرة البلاد حتى همس شيئًا لم تفهمه

سألت:

- ماذا؟

كرر:

- اجلسي هنا، بجانبي.

كانا يعيشان في غرفة صغيرة؛ وفرهـا الحـزب لهـما بضـواحي المدينـة، لا شيء بها يعود لهما؛ باستثناء ملابسهما.

شعرت بيد زوجها الباردة حول يدها، الـذي كـان كـالفتى الخـائف مـن العاصفة في ليلة غير مقمرة، كان قلبه ينبض بشدة وقلبها أيضًا.

- ما المشكلة؟

لم يجب.

كررت:

- ما المشكلة؟

قال:

- اهدئي، أريد أن أخبرك بشيء ما، لكن من فضلك لا تكرهينني ولا تغضبي، سأشرح كل شيء بشكل أفضل في وقت لاحـق، لكـن في الوقـت الحـالي كـل مـا يهمك هو أن تفهمي وتتقبلي أنني أخفيت عنك سرًا طوال هذا الوقت.

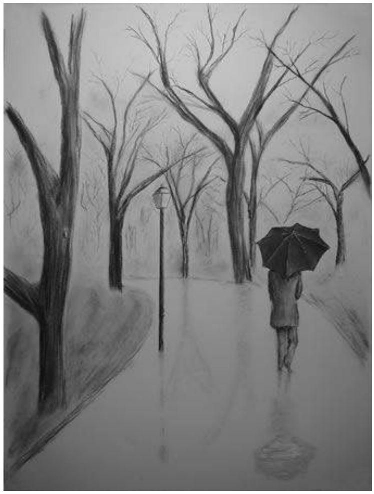
لم تقل شيئًا.

همس:

- حبيبتي، أنا "أومبيرتو".

حاولت سد أذنيها، لكي لا تسمع ما كانت قد فهمته بالفعل.





كانت الأمطار تتساقط في الخارج، لم يكن لدي أي فكرة عمَّا كانت عليه المدينة. تأخرت الرحلة أربع ساعات تقريبًا، انتظرتها وقتًا أطول مما أمضيته على متنها.

كان الليل قد خيّم بالفعل عندما وصلت إلى إزمير، لذلك أخذت تاكسي إلى الفندق.

كانت الرحلة متعبة، وجسدي يؤلمني، وكتفاي متصلَّبتين. لم أكن متأكدة ممَّا إذا كان من انتظار الطائرة، أو كوني في عجلة من أمري للوصول إلى نهاية هذه القصة، التي أعادت الألم لجسدي مرة أخرى.

في صالة الانتظار في المطار، خطر لي ببساطة أن عدم القدرة على الذهاب إلى إزمير بسبب سوء الأحوال الجوية، أو شيء من هذا القبيل قد

يكون نهاية ملائمة للقصة، لكنني في النهاية صعدت على متن الطائرة، ووصلت للمدينة التي وُلد فيها جدَّي.

كنت قد حصلت على دليل تليفون بالفعل. تفاجأت موظفةُ الاستقبالِ عندما طلبته، ولكنها أرادت مساعدتي، وأخبرتني كيف أبحث عمَّا أريد.

كان عليَّ أن أكون مستعدة، لأنني إذا لم أجد أيًّا من الأسماء التي كنت أبحث عنها، لم يكن لدي أي شك في أن جسدي سيتعطل ويعود كما كان قبل مغادرته البرازيل.

وجدت بعض الرفاهية في غرفتي وحاولت الاستفادة منها، أخذت حمَّامًا قد يساعدني على الاسترخاء، تركت الماء الساخن يملأ الحوض، بينما أفرغ أمتعتي.

عندما امتلأ الحوض تقريبًا جلست فيه، شعرت بأن عضلاتي تذوب مثل مكعبات الثلج التي تتلامس مع الماء، حتى إنني سمعت مفاصلي تصدر أصواتًا. لا يوجد مثيل للاسترخاء في الماء الساخن، كان الأمر كما لو أن كل شيء يسير بسلاسة.

فقدت الإحساس بالوقت، وأنا جالسة في الحوض، بالكاد أفكر بشيء، نائمة تقريبًا، أترك الماء يفعل ما لا أستطيع.

جلست على السرير بعد أن ارتديت ملابسي، مع دليل التليفون في حضني، بحثت عن الحرف "س" - وبصرف النظر عن بعض الاختلافات، فإن الأبجدية التركية تتشابه مع حروفنا.

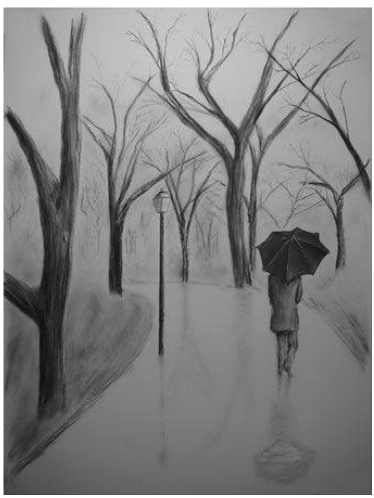
تتبعت عيناي الأسماءَ مع إصبعي حتى وصلت إلى اسم عـائلتي، أخـذت نفسًا عميقًا، خائفة من أن يخرج قلبي من مكانه.

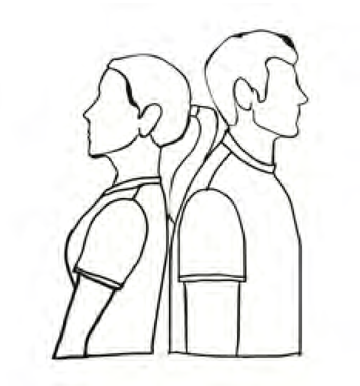
كان هناك، تمامًا مثـل الاسـم الموجـود عـلى رخصـة قيـادتي، بحثـت عـن الأسماء التي أعطاني جدي إيَّاها، وعثرت عـلى ثلاثـة باسـم "رافائيـل"وواحـد باسم "سولومون"، قمت بتدوين أرقامهم وعناوينهم.

هـل كـانوا أبنـاء عمـومتي الـذين أبحـث عـنهم؟ اقشـعر بـدني وأردت الجلوس في حوض الاستحمام، وعدم الخروج مرة أخرى.

نظرت إلى الساعة؛ كانت الحادية عشرة تقريبًا، الوقـت متـأخر للاتصـال بأشخاص لا أعرفهم، على الرغم من وجود احتماليـة أننـا ننتمـي إلى العائلـة نفسها.

"من الأفضل أن أؤجل هذا للغد"، قلت لنفسي وأغلقت عيني بلا عناء.





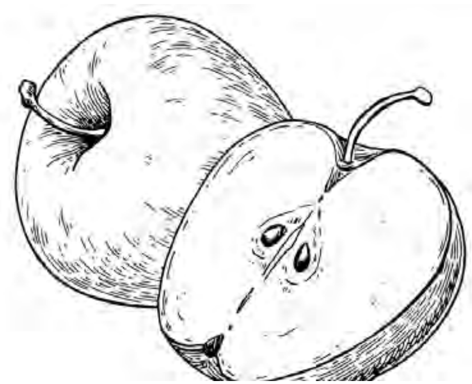
عندما اقتربت مني لتهمس في أذني، كنت خائفة جدًّا.

أمرتني:

- اخلعي ملابسك وانتظريني على السرير.

شعرت أنني محتجزة، ولكنني أطعتك.

في ذلك اليوم اكتشفت أن الذي بيننا ليس حبًا.



أولًا، الخبز الجاف لتذكر معاناة القبائل المبعدة التي تجوب الصحراء، ثم التفاح مع العسل، كي لا نعاني من الجوع أو فقر، ولنحظى بسنة سعيدة.

قمت بغمس شريحة التفاح بالكامل في وعاء العسل. أريد سنة سعيدة لقد تعبت من أكل الطحين والماء.

هناك سبعة أشخاص على الطاولة، يتم تمرير الخبز حولها، ويأخذ الجميع قطعة، وهم يكررون:

"el pan de la afriisyon ke komyeram nuestros padres em tyeras de Ayifto."

ثم يتناولون التفاح، ويقولون: " Shanah Tovah"

بالنسبة لي، كان هناك دائمًا شيء مفقود، لم نقم بهذه الطقوس بدافع التدين. الحقيقة، كان كل ذلك بمثابة تشريع مهم لنا، كنا يهودًا لمدة يوم واحد في السنة.

- لقد احتفلنا بالعام الجديد، لكن بالنسبة إلينا لم يبدأ العامُ حتى اليوم الأول في شهر يناير، السنة لم تبدأ في سبتمبر أو أكتوبر، لمَ الاحتفال إذًا؟ لماذا نكذب على أنفسنا؟

- لا أفهم؛ لماذا تقول إن الأمر كله مجرد ادّعاء، هذا كان خيارنا، لم يكن الدين هو المهم بالنسبة لنا، ولكن التقاليد.

- لم نرد أن نتخلص من كل ما جاهد أجدادنا للحفاظ عليه، ما يهم هو الحفاظ على رمزيتها.

- أردت توريث القليل مما تعلمته لأولئك الذين جاؤوا بعدي.

- أعرف، أنا أتفهم نيتك، إن نسيان الماضي أصعب مما نعتقد، لن نستطيع العيش بهذا الذنب.

- أعتقد أن هذا هو السبب في أننا نحن نقول إن للأمر علاقة بنسبنا، لكنه الخوف أكثر من أي شيء آخر، نحن خائفون من نسيان الماضي، ونكون المسئولين عن صنع ماضي الأجيال القادمة.

- الماضي لا يجب أن يُنسى.

- إذا لم ننسَ الماضي فإننا لن نعيش حاضرنا، هذا الألم الذي أشعر به في جسدي، ما يثقل كاهلي، هو الماضي الذي لا يُنسى والذي أحمله معي، ماضي أجيال، وأجيال.

- لا يا عزيزتي، ما تحملينه معك هو صمت الماضي، أنتِ تحملين ما لم يتم النطق به من قبل، ما لم يُسمع به.

- لقد حذرتك، الصمت سلاح ذو حدين.

- ولكن هذا ليس خطأي، لم يكن أنا من اختار حفظ الأسرار، لقد فُرضتْ عليَّ، وأنا لا أعرف حتى ما هي.

- بل أنت تعرفين، جسدك يعرف كل الأسرار، أسباب الصمت، هو يعرف أكثر مما تتخيلين.

- إذًا، هل تظنين أنه ميراث؟ هل ورثت معاناة العائلة؟ هدية رائعة!

- لا تنزعجي، فالأمر لا يستحق، ولا تتنصَّلي من مسؤوليتك، أنت مسؤولة عن ماضيك أيضًا. أنت مسؤولة عن ما تحملينه على عاتقك، وقبل كل شيء، كيفية تحملينه. هناك طرق مختلفة للتعامل مع هذا الميراث، وأنت اخترتِ الأصعب والأكثر إيلامًا.

- لقد أخبرتك بالفعل، أنا لم أختر شيئًا، جئت إلى العالم بهذا العبء الثقيل.

- كنت هناك عندما ولدت، وأتذكر بوضوح، كنت طفلة لطيفة وممتلئة، لم يكن هناك شيء ثقيل بجسمك الصغير الناعم.

- توقفي عن التهكم، أنت تعرفين ما أتحدث عنه

- أنا لا أسخر منك، أنا فقط أريدك أن تري الأشياء كما هي، أريدك أن تؤمني بهذه الرحلة، أن تظني أنك تستحقين أن تكوني سعيدة، وأنك يمكن أن تكوني كذلك. أريدك أن تفهمي أنك لست بحاجة إلى حمل عائلتك على ظهرك، وأنك يمكنك التحرر من الماضي. توقفي عن تجاهله، يجب عليكِ فهمه وأن تطلقي عليه اسمًا.

- لقد سمّيته بالفعل، الخوف.

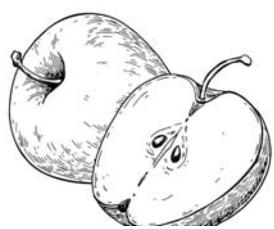
- لم أقابل شخصًا بعنادك من قبل، لكل خطوة إلى الأمام، أنتِ لا تحرزين أي تقدم. الماضي ليس مخيفًا. لا تفكري كثيرًا. فقط واصلي حياتك واستمتعي بالمفاجآت وستكتشفين سهولة العيش في هذه الحياة.

- أنت تقولين لي هذا الآن، ولكن لا تنسي أنك أنت التي علمتني أنه قبل التفاحة الحلوة؛ يجب أن نأكل الخبز الجاف.

- أنت على حق، "الماتزاه" بمثابة تذكير بالماضي المضطرب، الخبز الجاف يرمز للألم والبؤس، والتفاح بالعسل حتى لا نكرر الماضي.

- إذا كان الجميع يتحدث عن الماضي، فلماذا يجب علي تحمل هذا الصمت؟

- أنا أتفهم قلقك، لم يتم قول الكثير من الأشياء، وهو ما يحبطك، ولكنْ الخوفُ هو ما منعهم. ولكنَّ الأمرَ متروك لك الآن، الأمر متروك لأولئك الذين بقوا، أن يحكوا القصة، وأن يعيدوا روايتها. لا تكرري الأخطاء ذاتها، وتحدثي باسم الذين قرروا التزام الصمت.





أحكي القصـة التـي اختلقتهـا عـن أجـدادي، وقصـة الهجـرة وخسـائرها، والقصة عن مفتاح البيت في إزمير، وعن أملي في العودة إلى المكان الـذي أتى منه أجدادي، لكن أنت وأنـا فقـط مـن نعـرف أنَّ السـببَ الحقيقـي لعـدم قدرتي على الحركة هو شيء آخر.

أختلق هذه القصة لتبرير ذلك، لإعطاء العالم ونـفسي إجابـة، لكـن أنـت وأنا فقط نعرف الحقيقة.

أنـا لم أولـد عـلى كـرسي متحـرك، أصـبحت هكـذا، لقـد فقـدت حركتـي بالتدريج بعد أن التقيت بك، بعد أن وقعت في حبك.

كان الحب المجرد من الضوابط ما جعلني بهـذه الحـال، عالقـة في هـذا السرير اللعين.



كانوا مستعدين للنوم عندما أعلنت:

- حصلتُ لنا على حق اللجوء من سفارة كوستاريكا.

تظاهر بأنه لم يسمع، وكررت:

- حصلت لنا على حق اللجوء من سفارة كوستاريكا.

استمر في التظاهر بأنه لم يسمع.

قالت:

- لا أستطيع العيش هكذا بعد الآن، لقد صمدنا أكثر من معظمنا ولن نكون الوحيدين. لقد عشنا تحت الأرض لأربع سنوات، ألا ترى أنه لا يوجد أمل آخر لنا هنا؟ عندما تتحسن الأمور سنعود، تحلى بالأمل.

وضع الغطاء فوق رأسه، وقالت غاضبة:

- حسنا، أنا لن أستمر بالتحدث إلى الجـدران، إذا كنـت لا تريـد أن تـأتي معي، سأذهب بمفردي.





بعد أيام قليلة من وفاتك، اتصل الطبيب ليسـألنا عـن رحلتنـا للبرازيـل، وإذا ما كان كل شيء تحت السيطرة.

قلت:

- لا، لا شيء تحت السيطرة.

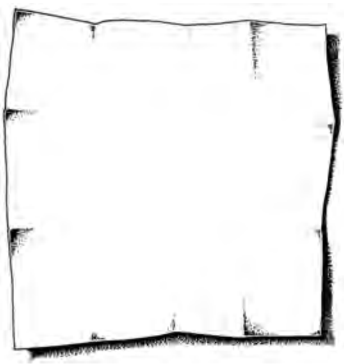
- لا يوجد شيء يمكـن لأي شـخص القيـام بـه، لا أنـا ولا أنـتِ، ولا حتـى أفضل مستشفى في العالم.

لقـد قـال كلماتـه وهـدأ فجـأة، خشـيت أن أسـمع حكـم إدانتـي منـه، اعتقدتُ أنه سيقول إنه كان خطئي، أنني خرقـت القواعـد بنـومي بجانبـك على سرير المستشفى، وأنني لم أكن أرتدي قناعًـا أو قفـازات، أننـي لم أضـع كمية كافية من الكحول في القسـطرة قبـل أن أضـع دواءك، تـذكرين كيـف

دربونني لأكون ممرضتك الخاصة عندما غادرنا المستشـفى، ظنـت أننـي إذا اتبعت تعليمات الطبيب فستكونين بخير.

عندما سمعت صمته، كنت واثقة من أنني على وشك سماعه يقول إنني مذنبة، ولكن لا، لم أتوقع ذلك، ولكن كلماته كانت طيبة ولطيفة.





لكي لا أتوتر، كتبت التفاصيل التي سأقولها على قطعة من الورق: من أنا، من أين أنا، لماذا أتصل، ماذا أريد.

اتصلت بـ"سولومون"، حيث إنني لم أجد غيره في الدليل.

رن التليفون، ولكن لم يجب أحدٌ، اتصلت مرة أخرى حتى أجابت امرأة.

سألتها إذا كانت تتحدث الإنجليزية، فأغلقتِ الخط.

ليتني أستسلم، كي لا أخوض الأمر ذاته مرة أخرى.

أخذت نفسًا عميقًا، واتصلت مرة أخرى، وقلت:

- "سولومون".

قالت شيئًا باللغة التركية، وبالطبع لم أفهمه.

كررت:

- "سولومون".

واصلت الحديث باللغة التركية.

للمرة الثانية سألتها إذا ما كانت تتحدث الإنجليزية، ولكنها أغلقت الخط مجددًا. أظن أن هذا لن ينجح، أظن أنني ساذجة ولن أستطيع تحديد مكان أقاربي.

التقطت التليفون ولكن هذه المرة، للاتصال بالبرازيل.

- جدي، وجدت الأسماء في الدليل. اتصلت ببيت "سولومون" ولكن أجابتني امرأة تتحدث اللغة التركية، وأنا لا أتحدث اللغة التركية، كيف من المفترض أنْ أتواصل معهم؟

ضحك جدي، وقلت غاضبة:

- ما المضحك؟

استطاع جدي أن يلين مزاجي بعض الشيء، أقنعني بأن ما حدث هو مجرد جزء منَ الرحلةِ، وأنَّ الرحلةَ لم تكن من المفترض أن تكون سهلة، وأن ما حدث ليس نهاية العالم:

- حافظي على هدوئك، لم تبدأ مغامرتك بعد.

- لكن كيف سأتحدث معهم؟

- جربي الفرنسية، جميعنا درسنا في مدارس الفرنسية، وإذا لم ينجح ذلك، جرّبي اللغة البرتغالية، أو ما تعرفينه من اللغة الإسبانية، لأنها تشبه إلى حد كبير لغة الـ"لادينو" التي لا يزالون يتحدثون بها بلا شك.

- حسنًا، ولكن ما زال لديّ ثلاثة أشخاص اسمهم "رافائيل".

- تأكدي إذا ما كان أحدهم يعيش في "بورنوفا" وإذا وجدته اتصلي به أولًا.

لا أحد منهم يعيش هناك، لذلك سوف أعتمد على حظي، اخترت واحـدًا مـنهم واتصـلت بـه، أجـابني شـاب، ومـن حسـن حظـي قـال إنـه يتحـدث الفرنسية، أخبرته أنني أريد التحدث الى "رافائيل".

عندما قال إنه هو "رافائيل" شعرت أنني اتصلت بالرقم الخطأ، ولكننـي لم أستسلم، وتابعت الحديث، وأخبرته أنني من البرازيـل وأننـي أبحـث عـن ابن عم جدَّي.

الذي يحمل الاسم نفسه، ولكنني لا أعرف رقمه، لذلك قررت الاسـتعانة بالدليل، وأنه أول من أتصل به.

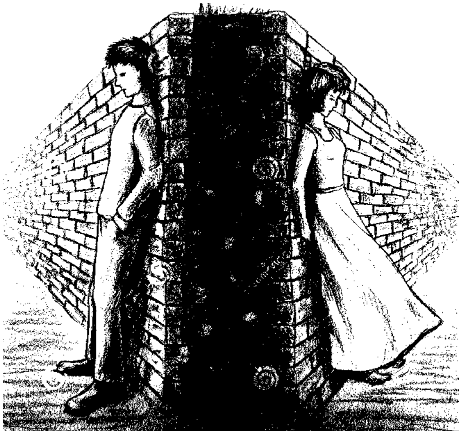
سألني عن اسم جدي، وقال إن اسم جده هو "رافائيل" أيضًا، وأن لديـه أبناء عمومة في البرازيل؛ هاجروا منذ سنوات.

قال إنه سيتصل بجده من أجلي.

- أظن أنها فكرة رائعة.

- أعطيني رقم الفندق الذي تمكثين فيه، وسأعاود الاتصال بك بمجـرد أن أتحدث مع جدي.

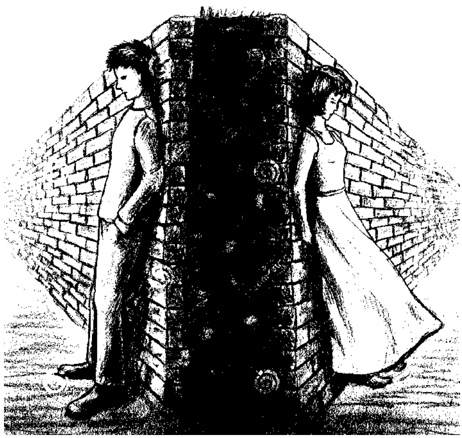
عندما أغلقت الخط، شعرت براحة؛ أنا على الطريق الصحيح - عـلى مـا أظن - أخيرًا.

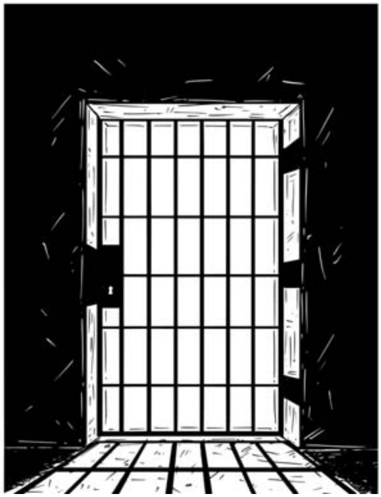


لا يوجد ما هو مؤلم أكثر من غياب الكلمات، لم تكن غبيًا وأنا أعلـم ذلـك، كنت تحطِّمني بصمتك، وكنت تختفي ولا أعلم عنك شـيئًا، كنـت تفعـل هـذا عن قصد، لكي تراني أتعذب، وأنا غير قادرة على الحركـة. كنـت أنتظـر أن يـرن التليفون، ولكنه لا يرن، وعندما يرن لا تكون أنت المتصـل، وكنـت أنتظـر مـن الكمبيوتر بأن ينبهني بوصول إيميل جديد، ولكنه لا يفعل. كنت أنتظر وصول خطاب، رسالة نصية، إشارة دخانية أي شيء.

كنت أنتظر مجيئك، ولكنك لا تأتي، كنت تتركني وحيدة مع هذا الصمت القاتل.

أحاول التحدث مع نفسي، والغناء، والاتصال بأصدقائي، رغبةً في سماع أي صوت، ولكن صوتك لم يكن منهم، ومع الوقت بدأت أفقد الأمل بالتدريج في استعادة قدرتي على الحركة مرةً أخرى.





أخذوها إلى السجن عندما لم يكن موجودًا.

بدأ يشعر بالقلق عندما لم يجب أحدٌ على اتصالاته، لقد بدأ يتوقع الأسوأ، لقد اتصل بالشقة بلا توقف، ولكن لم يُجب أحد.

شعرتْ بالندم لأنها لم تغادر المدينة، لماذا بقيت على أيَّة حال؟ هل لأنها تحبه؛ أم لأنها أحبت المكان؟

لم تكن غاضبةً نهائيًّا، بل كانت خائفة، أرادت المغادرة.

- أرجوك دعني أذهب، لا علاقة لي بالأمر، أنا لست من تظن، أنا فتاة لطيفة من عائلة محترمة، هذه غلطة.

ولكن حيث كانت لم يعني هذا الكلام أي شيء، الكلام الوحيد الذي يعني شيئًا هنا هو ما لم ترد التفوَّه به؛ ولنْ تتفوَّه به.



لدي سر كبير لدرجة أنه يؤلمني جسديًّا الاحتفاظ بـه، في بعـض الأحيـان أكرر وأنا وحيدة: "لا أستطيع القيام بهذا، لا أستطيع، لا أستطيع".

"الصمت خطير"، هذا ما كنت تقوله له لي دائمًـا، وهـذا الخطـر يلاحقنـي وأشعر برغبة ملحة في التحدث عن الأمر، أشعر به يُشوَّهني وأنـا أحـتفظ بـه. لا شيء لطيف به حتى إنه يؤلم أكثر من الكبريـت، أظـن أننـي إذا أمسـكته في يدي سيكون شيئًا لزجًا مقززًا، إنه قبيح جدًّا لذلك قررت ألا أخبرك بـه، لأننـي لا أريدك أن تعاني أكثر من ذلك.

لا أريد أن أخبرك بدافع الخوف، لقد أخبرت شخصًا به مرة وقـال: "أنـتِ شجاعة جدًّا لعدم إخبار أمك بهذا السر"، ولكنَّ الحقيقةَ هـي أننـي خائفـة، وهذا هو السبب الرئيسي لعدم إخبارك به. ما زلت أتعايش مع الخطر الذي يولّده الصمتُ.

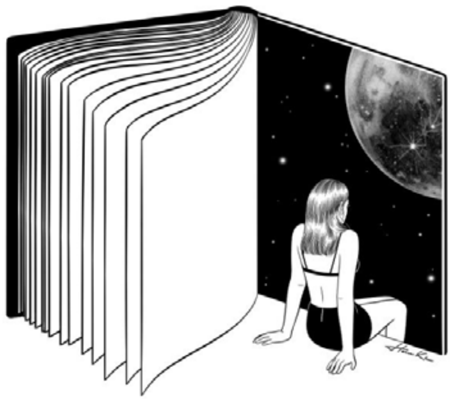
أحمل في جسدي المشلول كل كلمة، لا أقدر على النطق بها، حتى الآن يا أمي وأنت ميتة، وأنا هنا لا أملك الشجاعة الكافيـة لأخـبرك بـه، ومـع ذلـك

أرغب في التحدث، أريد أن أخبرك بالحقيقـة، ولكننـي مـا زلـت خائفـة مـن تأثيره عليك.

هل تذكرين عندما كنت صغيرة؟ عندما كنت أريد إخبارك بأمر مـا مثـل قبلتي الأولى أو دورتي الشـهرية الأولى. كنـت أكتبـه عـلى ورقـة، وأضـعها في غرفتك، كنت أخشى التحدث، ولكنني كنت أريدك أن تعـرفي بـالأمر. أعـرف أنني كبرت على القيام بالأمور بهذه الطريقة، وأعرف أننا كنا قريبين بمـا فيـه الكفاية لأنظر في عينيك وأخبرك بمـا أريـد إخبـارك بـه؛ ولكننـي لم أرغـب في رؤية نظرة الرعب على وجهك.

أنا لا أستطيع التفكـير في أي طريقـة أخـرى، لـذلك سـأكتب لـك رسـالة لأخـبرك بمـا يـؤرِّقني، سـأكتب السر وأدفنـه في متنـزَّهٍ أو غابـة وأضـع بعـض العسل عليه لأغطي على المرارة، وأزرع فوقه زهرة، ستكون أجمـل زهـرة في المكان، وعندما تجدين السر يا أمي وتشعرين بالحزن، أرجوكِ اقبلي الزهـور التي ستكون معه كعزاء صغير وقبلة مني.





استيقظت، وقبل أن أعد قهوتي تفقدت الإيميل ورسائلي والبريد الصوتي في انتظار أي أخبار منك، لم أستطع أن أفكر في أي شيء غيرك طوال اليوم، حتى وأنا آكل، وأنا أعمل، حتى وأنا نائمة. بعد الإفطار سأتوجه للمكتب، وأقرأ الصحف على الإنترنت، ثم أتفقد تليفوني، وأتركه على المكتب بجواري، ثم أبدأ بالكتابة. أكتب كلمة ثم أتفقد التليفون؛ ربما لم أسمعه أو لو يرن حتى. مثل هذه الأمور تحدث، وبعد ذلك أقوم بمحو ما كتبت، وأكتب ٣ كلمات، وأقوم من مكاني وأتنقل بين غرفة المعيشة والمطبخ. ما زلت لا أستطيع التوقف عن التفكير بك. أعددت كوبًا آخر من القهوة، وتابعت تجوّلي في أنحاء الشقة بحثًا عن الإلهام، ولكنني لا أستطيع التوقف عن التفكير بك، أراك في كل زاوية حولي، وفي كل فكرة.

عدت للمكتب مرة أخرى، وبـدأت في الكتابـة مـرة أخـرى، كتبـت عـدة كلمات، ولكـن كـل مـا أكتبـه الآن لـه علاقـة بـك، مسـحت كـل مـا كتبتـه، وتفقدت الإيميل مرة أخرى، لا شيء جديد، إعلانات، ورسـائل مـن أصـدقائي، ولا شيء منك.

قلت لنفسي: "انسِ الأمر وتوقفي عن التفكير بـه وركـزي في عملـك. اكتبـي". نظرت إلى الشاشة، وحاولت التركيز، وغيرت نوع الخط ولونه، عادةً ما ينجح هذا، حاولت كتابة فقرة واحدة ولكنني فشلت.

نهضت وذهبت للمطبخ وغرفة المعيشة مرة أخـرى، حضَّرتُ كوبًـا ثالثًـا من القهوة، وذهبت للمكتب مجددًا، وتفقدت الإيميل وتليفوني مرة أخـرى. لا شيء منك. أسمع رنين التليفون وأقفز لكي أرد عليه، ربما يكون منك، ولكن لا، إنه أبي، أو شركة التليفون، أو جدي، أو أحد أصـدقائي، وأتجـه للكمبيـوتر مرة أخرى. أجلس عاجزة عن الكتابة، وقد أدخل إلى غرفتي، وأسـتلقي عـلى سريري والستائر مغلقة وأتأمل في السقف، وأتساءل إذا مـا كنـت سـأتوقف عن التفكير فيك يومًا ما.





لم أستطع النوم بسبب الكوابيس التي راودتني تلك الليلة ونوبات الرعب التي أُصاب بها؛ عندما أستيقظ وأنا غارقة في عرقي وعندما أحاول النوم مرة أخرى، أرى كابوسًا آخر. هذه المرة أنا في منزل لا أعرفه، ولكنني أُميِّز صورة جدي على الحائط، وكؤوس جدتي الزجاجية، والسجادة التركية من شقتي، وصورًا قديمة، والطاولة الزجاجية، ورائحة العفن.

المنزل بأكمله مصنوع من الخشب الداكن، والأرضية عليها سجاد يدوي الصنع، وأرى أيضًا سلالم تقود للدور الثاني، ولكنني لا أعلم ماذا يوجد بالأعلى، هل هذا المنزل الذي أمضيت حياتي كلها فيه؟

أنا وحيدة والوحدة تخيفني، لقد أمضيت حياتي أحاول المغادرة ولكن بلا جدوى.

الباب مغلق بمفتاح، ولا أستطيع إيجاده، الحائط صلب جدًّا كأنه صنع من الحجارة، والباب ضخم جدًّا، وثقيل كأنه يتكون من عدة طبقات،

حاولت البحث عن المفتاح في أنحاء المكان، ولكنني لم أستطع العثـور عليـه، حاولت طلب المساعدة ولكنني فقدت صوتي.

أنا لا أعرف مـاذا يوجـد في الخـارج؛ قـد أكـون في بيـت يقـع في منطقـة مهجورة. تمنيت أن أكون "أليس" في بلاد العجائب لأعـبر مـن ثقـب المفتـاح، وأرى العالم، أتمنى أن أرى السماء والأشجار، وأنْ أقابـل شخصًـا، وأسـير معـه طوال الليل، وأن أتمشى في الحديقة التي أظن أنها محيطـة بـالمنزل، وأجمـع الفراولة بقميصه، وأن أسافر بعيدًا عن هـذا المنـزل، وأن أرى مـا لم أره مـن قبل، ولكن الباب موصد ولا يوجد نوافذ.

جسدي يضعف مع الوقت، وقصتي تقتصر فقط على الجدران المحيطـة بي والموت الذي ينتظرني.

♒ ♒

الألم موجود في كل شيء، وفِي كل أنحـاء العـالم، وفي كـل جـزء منّـا، حتـى مَسَامُنا لا تخلو منه.

مشاعرنا تتغير، ولكنْ الألمُ يبقى كما هو. في كل شيء مررت به في حيـاتي، في الحب، في سعادتي، في حزني، في معاناتي، في الحداد، في أحلامي، لم يخـلُ أي من هذه الأوقات من الألمِ.

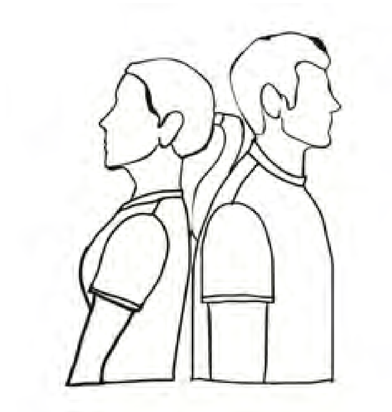
لا أستطيع أن أوافقك يا أمي عندما تقـولين إننـي لا أركـز إلا عـلى الجانـب المؤلم من الأمور، فهذا ليس صحيحًا، لأنَّ الحياةَ مليئةٌ بالألم، هـذه هـي الحيـاة.

هذه الرحلة التي أقوم بها، والبلد الغريب الذي وجـدت نـفسي فيـه، كـل هـذا مؤلم، صحيح أنه جميل، ومثير ومضحك، ولكنه مؤلم.

هذا الإرث مـؤلم، الأمـور التـي أحملهـا معـي رغـمًا عنـي تـؤلمني، هـذه المحادثة مؤلمة أيضًا يا أمي، قصة الحب التي مررت بها مؤلمـة، قصـة جـدي وقصتك ومعاناتك وإبعادنا، كل هذا مؤلم وفوق كل هذا الحديث عـن الألم مؤلم، حتى كتابـة هـذه القصـة مؤلمـة، حتـى محاولـة البحـث عـن كلـمات جديدة للتعبير مؤلمة.

الكتابة مؤلمة.. الكتابة لا بد وأن تؤلم.





لم نرَ بَعضنا منذ شهر، ولكنك اتصلت بي، وقلت إنك بحاجـة لرؤيتـي، لم أرد رؤيتك ولكنني كنت بحاجة لذلك أيضًا.

عندما سمعت صوت الجرس شعرت أنني في موعد، أردت أن أهرب عـبر النافذة، ولكنني لم أستطع.

ارتجف جسدي من الخوف والرعب والتوتر والحنين، قلت:

- ادخل، الباب مفتوح.

كنت في غرفة المعيشة جالسة على الأريكة، عندما رأيتـك وقفـت كـأنني حيوان يتحسس الخطر يقترب، لقد اقتربت مني، وقلت:

- افتقدتك.

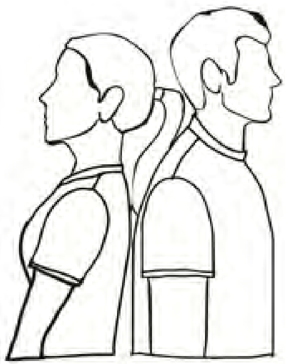
كنــتَ تعلــم كيــف تُجــرِّدني مــن دفاعــاتي، ولكننــي مــا زلــت في خطــر. لم أستطع التوقف عن الارتجاف. كان جسدك قريبًا مـن جسـدي. راقبـت حركـة تنفسك ورائحتك وحضورك ولكنني لم أستطع الحركة، سمعتك تقول:

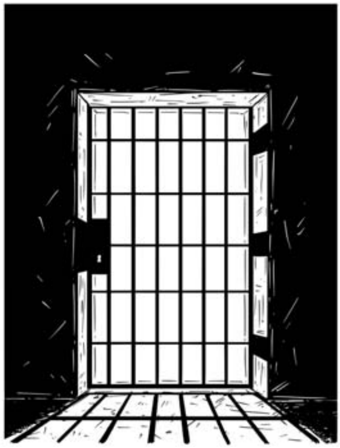
- تبدين جميلة.

كانت هذه الضربة الثانية بعد تجريدي من دفاعاتي، والضربة الثالثة كانت بفتح أزرار قميصي. في تلك اللحظة أردت أن أبكي ولكنني لم أستطع؛ كأنَّ مشاعري تحولت إلى كتلة كبيرة من الرغبة والنشوة واللذة والألم، كل هذا جمَّدني في مكاني.

لقد خلعتَ قميصي، وألقيت به على الأرض ومعه الباقي من ملابسي، بدا الأمرُ كأنك تلمس أعضائي الداخلية مباشرة عندما لمستني.

عندما لمستني تلاشى جلدي.





في غرفة مساحتها 3 أمتار مربعة، قاموا بتشـغيل مـبرد الهـواء عـلى أقـل درجة ممكنة، أرادوا تحويل المكان إلى ثلاجة. كانت المـرة الأولى التـي تعـاني فيها من برد بهذه القسوة، شعرت ببشرة وجهها تبدأ في التصـدع، وجسـدها العاري على وشك أن يتشقق مثل الثلج. ارتجفت ونطقت بكلام غير مفهوم، شعرت أن النهاية كانت قريبة، وندمت عـلى تورطهـا فى شيء كهـذا؛ لم تكـن تريد أن تموت، ولكن ذهب شعورها بالندم مبـاشرة؛ فـإذا ماتـت، فسـتكون من أجل قضية عادلة.

ارتجفت بشدة حتى شعرت بأن ذراعيها سينفصلان عن جسدها، بـدأت فى القفز، و ممارسة الرياضة دون توقف لمدة ساعتين تقريبا حتى توقـف الشـعور بالبرد، جلست لترتاح فهى أكثر دفئًا الآن، وبدأ البرد فى الاختفاء.

أدركت أن مبرد الهواء لم يعد يعمل بعد الآن، هل كانوا سيخرجونها من هناك؟ تسارعت ضربات قلبها، لا يمكن لأحد أن يتخيل كم كانت تتوق إلى رؤية ضوء النهار.

كانت تأمل أن ترى زوجها مرة أخرى، ووالديها، وأصدقائها مجددًا، ووعدت نفسها أنه من الآن فصاعدًا لن تُعرِّض حياتها للخطر، لا نفسها أو عائلتها.

كان والدها يقول دائمًا: "هل أعطيتك أفضل ما يمكن للمال شراؤه حتى تضعي كل شيء على المحك؟ هل هذا سبب زواجك؟ كيف ستعطيني أحفادًا فى مثل هذا الموقف؟". أجابت: "ولكن، أنا أفعل كل هذا من أجلهم، من أجل الأطفال التي سأنجبها يومًا ما".

شعرت أن اللحظة كانت قادمة، وأنه سرعان ما سيتم لمٌّ شملها مع أحبائها، وتخرج من الغرفة، وتصل إلى البيت.

فجأة شعرت بالسخونة فى رقبتها، وبدأت فى التعرق و أصبحت جبهتها رطبة، بدأت قطرات العرق تنساب على جسدها، كانت الحرارة تتصاعد بشكل قاسٍ.

لا، لم تكن ستخرج من هناك، قاموا برفع الحرارة إلى أعلى ما يمكن، فقد تحولت الغرفة الآن إلى فرن.



لم أتوقع مطلقًا أن أذهب في رحلـة للبحـث عـن المـاضي، لقـد اعتقـدت أنني لن أستفيد من البحث في أنقاض ما لم يعد له أثـر الآن، وأن الـذكريات هي مجرد دموع جافة، على وجوه من غادروا.

خطر لي، وأنا أغادر الفندق الآن بعد اكتشافي الدليل الـذي قـد يقـودني لعائلتي، أنه على عكس ما اعتقدت؛ هذه الدموع لم تجف بعد.

علمت من الفنـدق أن إزمـير مدينـة صـغيرة لا تقـارن بإسـطنبول، عـلى الرغم من عدم وجود مزارات سياحية كبيرة بها، إلا أنَّ كل زاوية، وكل بـاب، وكل شخص تركوا غصة في نفسي.

قد أكون ولدت هنا!

هذا قد يكون موطني!

خطر لي، وأنا أمشي في الميناء أن هذا قد يكون الميناء الذي استقل منه جدي الباخرة المتجهة للبرازيل. هذه السفينة الضخمة التي أخبرني عنها راسية في هذه الميناء.

كانت الشمس ساطعة - ولكن ليس أكثر من شمس إسطنبول - على ميدان "كوناك" حيث يقع برج الساعة.

استندت على الحائط أمام البحر ونمت، استيقظت على صوت فتاة تسألني إذا ما كنت أريد شراء صندوق من الطعام، مما جعلني أدرك جوعي، فاشتريت منها.

خلف هذه الساعة تُوجد مدينة لم أرها بعد، ولكنني أستطيع التكهن بجمالها وتصاميمها وألوانها.

لم أشعر برغبة قوية لأكتشف المدينة الآن لذلك جلست في مقهى مطل على البحر وتأملت في منظر البحر من أمامي، وحاولت أن أتخيل شعور المغادرة من هنا.

أخذت أفكر إذا كان جد "رافائيل" هو ابن عم جدي، وإذا ما كنت سأقابله وأكلمه أم لا.

هذه هي مدينتي، لم تكن مدينة السجاد والذهب هي ما أبحث عنه ولا مدينة التبغ والطعام، إنما كنت أبحث عن مدينة عائلتي.

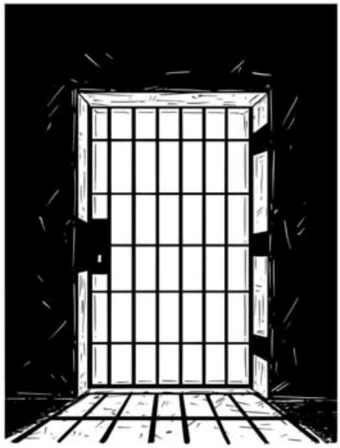
كلانا أخذ حمامًا صباح السبت، ليزيل آثار السكر بعد ليلـة الجمعـة. في الليلة الماضية، كنا قد احتفلنا بذكرانا السنوية الثانية، مَنْ كـان ليتخيـل أننـا سنبقى معًا كل هذه المدة، وتلك الجوهرة التي أعطيتني إياها على العشـاء. أتذكر العشاء جيدًا، "ريزوتو بـالفطر" مـع "الشـامبانيا"، وللتحليـة: الجـاتوه بنكهة الجوافة والأيس كريم.

- تعالَ هنا بجانبي.

مررت يدي بشعرك المبلل، وجلسنا معًا.

بعد العشاء ذهبنا للرقص، لم نفعل هذا منذ وقت طويل، في ملهى ليليّ، مع موسيقى رقصٍ صاخبة. كانت حلبة الرقص مليئـة بنسـاء يرتـدين تنـانير قصيرة أو بناطيل جينز ضيقة مع قمصان قصيرة تظهر الحـلي التـي وضـعنها في سرتهن، ورجال بقمصان لم يقفلوا أزرارها جيدًا، وتسريحات شـعر غريبـة ورائحة البيرة تملأ ثيابهم.

كنا نرقص وحدنا طوال الليل، وجسدك المتعـرق ويـدك حـول خصري، لم نقل أي شيء، لم نفكر بأي شيء ولم نرد أي شيء.



"تنفسي بسرعة قبل أن يغطسوا رأسك مـرة أخـرى، تماسـكي، تسـتطيعين فعلها".

كانوا ثلاثة رجال. ثلاثة متوحشين، وقفوا حولها.

لم تعد امرأة بعد الآن، فقد أصبحت جثـة هزيلـة، مجـرد كـيس مترهـل مليء بالعظام. في كل مـرة يغطسـون فيهـا رأسـها في الحـوض كانـت رجلهـا تضعف ولا تقوى على الحركـة، فيقـوم أحـد معـذبيها بزيـادة الضـغط عـلى رأسها أكثر.

سمعت أصواتًا مشوشة وهي تحت الماء، ولكنها لم تسـتطع فهـم مـا يقـال، وحتى لو كانت لديها الطاقة الكافية للاستماع؛ لم تكن لتفهم ما يقال.

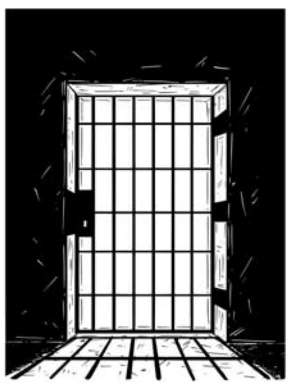
"تنفسي بسرعة قبل أن يغطسوا رأسك مـرة أخـرى، تماسـكِي، تسـتطيعين فعلها".

لم تكن تفكر في أي شيء محدد، فقط صور عشوائية بلا تفسـير منطقـي، لقد سمعت أن الإنسان قبل أن يموت يرى شريط حياته بأكمله، هل هذا ما يحدث الآن؟ هل هي تحتضر؟ هل هذه هـي آخـر ذكرياتهـا؟ لم تُبْـد أي رد فعل.

عندما أخرجوا رأسها من الماء، لم يكن لديها الوقـت ولا النيـة لتقـول أي شيء، أو لتخبرهم بأنها ستخبرهم بما يريدون معرفته.

"تنفسي بسرعة قبل أن يغطسوا رأسك مـرة أخـرى، تماسـكي، تسـتطيعين فعلها".

كرروا الحركة نفسها مرة بعد مرة: يغطسون رأسـها في المـاء ويخرجونهـا حتى أصبحت جثة هامدة لا تتحـرك ولا تقـاوم، عنـدها رموهـا عـلى الأرض الباردة، وجرّوها إلى زنزانتها لكي تنتظر أن يتم استدعاؤها مرة أخرى.





كانت رحلة طويلة في السيارة. سألني "رافائيل" إذا ما كنت استمتعت بالعشـاء، واعتـذر بالنيابـة عـن أقاربـه. أجبتـه بأنـه كـان رائعًـا وأنـه لا داعـي للاعتـذار. تأملت أثناء قيادته حركاته وملامح وجهه والطريقة التي يتحدث بها، خطر ببالي أنـه كان من الممكن أن أكون مكانه، إذا كنت ولدت هناك كنت سأكون يهوديـة. كنـت سأتكلم لغتهم وأتزوج من يهودي.

- ماذا؟ أنتِ لا تتحدثين لغتنا؟

لقد أدهشني هذا السـؤال غـير المتوقـع، وإذا بهـم جميعًـا ينظـرون إلي بأعين تنم عن الشك، وكأنني ارتكبت خطأ فادحًا.

استمعت إليهم وهم يتحدثون بلغة لا أفهمها. كان "رافائيل" ينظر إلي بشفقة وكأنه يفكر أنه كان من الممكن أن يكون في مكاني، كان من الممكن أن يولد في بلد مختلفة، وألا يتحدث بلغة أجداده.

وجدت الدعم في نظرته في أثناء محاولتي تجاهل ما يحدث من حولي على أنني استطعت فهم بعض الكلمات هنا وهناك. حاولت أن أبرِّر موقفي وقلت:

- إنَّ الوضع كان متعلقًا بالنجاة. كان على جدي أن ينسى ماضيه لذلك لم يُعلِّم لغته لأحد.

أجاب جد "رافائيل" بصرامة قائلًا:

- إنَّ اليهودي الحق لا ينسى الماضي.

خطر ببالي أنه ربما لم يكن جدي يهوديًّا حقًّا، لكنني لم أقل أي شيء.

قال "رافائيل":

- أنتِ تعلمين كيف هي الأجيال القديمة. إنهم لا يقصدون أن يكونوا هكذا، إنهم يقومون بهذا بداعي الخوف.

- أجل أظن هذا.

تساءلت إذا كان هذا فعلًا شعور الجد عندما منع التحدث بأي لغة أخرى غير لغة اليهود، لم يعترض أحدٌ؛ لا "رافائيل" و لا زوجة الجد؛ "جوديث"، ولا أرملة "سولومون"؛ "مارثا". رغبت في هذه اللحظة أن أهرب أو أن أصيح بالبرتغالية أنه لا يوجد سبب لوجودي هنا، لكنني قبلت قراره، وقلت بخليط من الأسباني والبرتغالي:

- سأحاول.

ولكنني لاحظت بعد هذه الواقعة راحة الجد قليلًا، عندما ذكرت أننا نأكل الطعام نفسه في البيت، وابتسامته لأول مرة وكأنه يفكر في أنَّ الثقافةَ والمجتمعَ أكثر من مجرد اللغة.

سألني "رافائيل" عندما وصلنا إلى الفندق:

-هل تريدين الذهاب إلى "بورنوفا" غدًا لرؤية الحي الذي عاش فيه أجدادك. من الواضح أن جدك ترك البيت خاليًا عندما انتقلت إلى البرازيل، وظل مهجورًا لعدة سنوات، ثم هدم منذ 15 عامًا، لكن يوجد العديد من المنازل المثيلة له، والمبنية في الحقبة نفسها وبالتصميم نفسه.

أخرجت المفتاح من الحقيبة وتأملته. فكرت في أنه لا داعي للذهاب إلى هناك إذا لم يكن المنزل موجودًا، فهم "رافائيل" ما يدور بخاطري.

هل سأرى "رافائيل" مرة أخرى؟ ربما هو يفكر في الشيء نفسه.

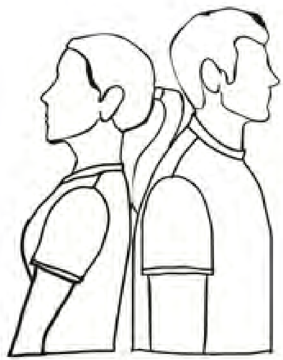
على الرغم من أننا نمتلك الأنف نفسه، إلا أننا مختلفان تمامًا. لم أتخيل قط أن نكون أقارب.

عندما ابتسم، شعرت فجأة برغبة كبيرة بتقبيله، ودعوته لغرفتي لنقضي الليلة معًا. لكننا ودعنا بعضنا، وتمنيت أن أراه مجددًا مرة أخرى.

أغلقت باب السيارة، وأدركت وأنا متوجهة لغرفتي أنه لا يوجد شيء متبقٍ لأفعله في هذه البلد، ولست متأكدة إذا ما كان لدي شيء أفعله من الأساس.



بغضب ألقيت الآلة الكاتبة على الأرض، ومزقت كل شيء كتبته حتى الصفحات البيضاء، حتى لا تكون هناك فرصة لي لأكتب مرةً أخرى؛ لقد أدركت أن كتابة هذه الرحلة لاكتشاف جذوري بلا فائدة، لا أريد كتابة كلمة بعد، وأريد تدمير ما تم تدوينه بالفعل، هذه الرحلة لا يجب أن تكتمل لا في الحقيقة، ولا على الورق.



في بعض الأحيان كنا نبقى في المنزل طوال عطلة نهاية الأسبوع، كنت تحبّني كما لم يحبني رجل من قبل، جعلتني أصدق أنني أحبك وأنك تحبّني.

في أوقاتٍ كهذه كنت أنسى أن جسدي تملؤه الجروح وأنك مزقته.

في أوقاتٍ كهذه كنت أدَّعي أن جسدي بخير، وكنت أقدمه لك، كنت تعلم كيف تلمسه دون أن تؤذيني، ودون أن تلمس جروحي، كنت تدَّعي أنها ليست موجودة.

حتى هذا اليوم لا أعرف إذا كان هذا الجنون حبًّا أم لا، وأحاول إقناع نفسي بأنه لم يكن حبًّا، وأن الحب هو شيء آخر مختلف عن هذا، وأنه لا يدمر الجسد هكذا، ولا يتركك ضعيفة وهشة، أحاول تصديق هذا؛ ولكنني أخاف من كوني مخطئة، وأنَّ الحب هو ذلك الألم الذي يلتهم الجسد والروح.



توقف الجميع عن الأكل، ونظروا إليَّ عندما سألت:

- هل بيت جدي ما زال موجودًا؟

فكر "رفائيل" قليلًا وقال:

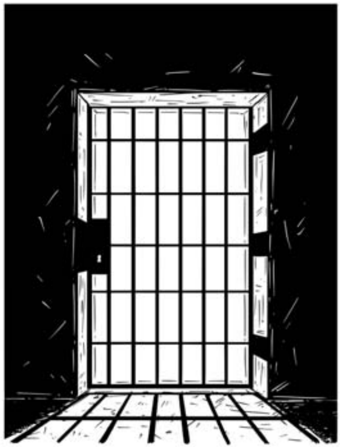
- لا، هل أردت رؤيته؟

أخبرته أن جدي أعطاني مفتاح بيتـه، لأحـاول فـتح بـاب منزلـه، نظـر لي مستغربًا وقال:

- ألا يعلم جدك أنه تم إزالة منزله؟

قلت:

- لا أظن ذلك.



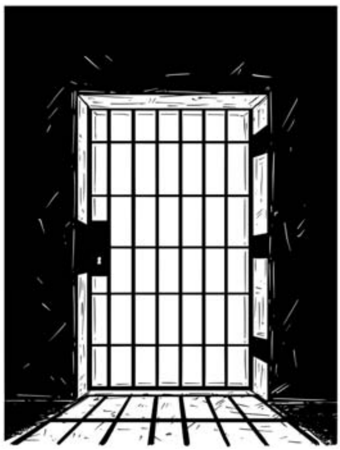
لم يذهب ليرى مَنْ على الباب، في الواقع لم يعد يهتم بمعرفة مـن يطـرق بابه بعد الآن، عندما استسلم لفكرة أنـه لـن يسـتطيع فعـل أي شيء، فقـط استسلم لليأس.

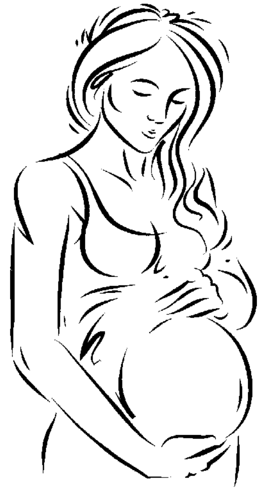
لم يكن يخرج إلا لشراء الضروريات ليبقى على قيد الحياة. شعر بالـذنب أكثر من أن يتابع حياته، ما كان يجب عليه تركهـا وحـدها، لمـاذا لم يـذهب معها؟ لماذا لم يستمع إليها عندما اقترحت اللجـوء لسـفارة كوسـتاريكا، كـان هو من أراد البقاء والمقاومة. لم يكن قرارها.

ظـل جـرس البـاب يـرن مـرة بعـد الأخـرى، وبعـد مـرور سـاعة شـعر أنها هي من تقف خلف الباب، أجل إنها هي من تقف خلف الباب، ترتدي الملابـس التـي كانـت ترتـديها عنـدما أخـذوها: الجينـز ذاتـه والقمـيص

الرمادي، والحقيبة الجلدية، ولكن هذا فقط ما تعرف عليه منها، ماذا حدث لعينيها؟ وابتسامتها؟ ولكنها كانت هي بلا شك.

استغرق الأمر بعض الوقت لحملها ووضعها على الأريكة. وجلس بجانبها، لم يستطع التوقف عن البكاء، ولم تنطق هي بأي كلمة. جلسا هكذا لساعات أو قد تكون أيامًا أو شهورًا أو سنين، كلاهما يشعر بالألم ذاته.





قلت له:

- أنا حامل.

قال، دون أن يرمش حتى:

- تخلصي منه.

- أتخلص منه؟ مستحيل.

- ماذا تقصدين بمستحيل؟ هل تقصدين أنني سأكون أبًا في هذه المرحلة من حياتي؟

- أنا لا أظن ذلك، بل أنا متأكدة.

- لا، أنا لن أصبح كذلك.

- بل ستكون أبًا لهذا الطفل، أنا لن أتراجع.

- سنرى.

ولم نتحدث في هذا الأمر مرة أخرى، وبعد أسبوع اكتشفت كم أننا مختلفان، كنا نتناول طعام الإفطار عندما شعرت بألم حاد في معدتي كانقباضات الدورة الشهرية ولكن أقوى. لم أستطع تحمُّل الألم، ووقعت على الأرض، زيَّفتَ قلقك، وأتيت لتطمئن عليَّ.

- ما الأمر؟

لم أجب، فقط صرخت من الألم، ودفعتك بعيدًا، كنت غاضبة لم أفكر في أي شيء سوى أنني أكرهك، وأنك أنت السبب.

رأيت الدم ينساب من بين ساقيّ، وينتشر في كل مكان، بكيتُ على طفلي الذي فقدته.

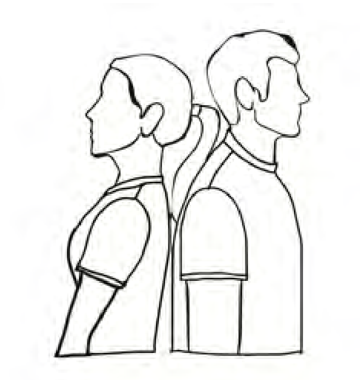
لم أستطع النظر في عينيك حتى عندما استيقظت في المشفى، كنت خائفة من أن أرى الإجابة فيهما. كنت خائفة من حقيقة أنك لن تستطيع الكذب عليَّ.





سألني "رفائيل" ونحن نحتسي الشاي:

- لماذا لم يأتِ جدك بنفسه ليفتح الباب؟



يراودني الحلم ذاته كل ليلة.

كنت نائمة عندما أتيت، وجلست على السرير بجانبي، ومسحت على شعري برفق، استيقظت ورأيتك جالسًا، وقبل أن أتفاجأ حتى قلت لي:

- لقد عدت، لقد اضطررت للرحيل ولكنني عدت الآن.

أمسكت يدك بقوة لأنني خفت من أن ترحل مرة أخرى، ثم سألتك:

- تعني أنَّ القرارَ كان بيدك؟



أنا وحيدة مرة أخرى، أتجول في المدينة.

فكرت في كل شيء فعلته حتى الآن، لم أستطع إخراج العشاء مع العائلة من رأسي، كان خليطًا من خيبة الأمل والرضا والمتعة.

وأنا أتمشى في شوارع إزمير شعرت بأنني أكملت الجزء الأول من رحلتي لم يعد لديَّ شيء آخر أقوم به في تركيا، وما زلت أريد الذهاب إلى البرتغال، حيث لا يوجد منزل ولا أقارب للبحث عنهم.

على الرغم من كونها مدينة عائلتي، ومحل ولادتي فقد غادرتها عندما كان عمري ٩ أشهر، لم يكن وقتًا كافيًا لي لأكوِّن ذكريات عن المكان، ولكنني أظن أنني قد أَجِد شيئًا في لشبونة متعلقًا بي.



كانا قد أمضيا شهرًا في القنصلية بلا أي اتصال بالعالم الخارجي. لا يستطيعان المغادرة ولا إجراء المكالمات، ولا رؤية أي أحد، ولا أي شيء. في عشية يوم مغادرتهما إلى كوستاريكا، طرق نائب القنصل على باب غرفة نومهما.

- أنتما تعلمان أن الزيارات ممنوعة، ولكنها أصرّت، وقالت إن ابنتها ستغادر وعليها توديعها، سأسمح لها بذلك فقط لأنكما ستغادران البلاد غدًا. لديكما ١٥ دقيقة فقط.

نظرت إلى زوجها بحزن وقالت:

- أمي هنا، يا إلهي إنها مجنونة.

رتَّبَتْ شعرها، وذهبت لرؤيتها،

كرر نائب القنصل:

- 15 دقيقة فقط لا أكثر.

لم يروا بعضهم بعضًا منذ أكثر من سنة، فقط تحدثوا على التليفون بضع مرّات، وكانت دائمًا مكالمات مختصرة. كانوا يستخدمون شفرات دون ذكر أسماء أو أماكن، فقط كلمات مثل: "أنا بخير"، و"لا تقلقي"، و"كل شيء سيكون بخير"، و"لا تبقي هناك، غادري البلاد".

رأت أمها واقفة، وركضت ناحيتها لتصل إليها في أسرع وقت ممكن، كانت والدتها أقصر منها، وعانقتها كطفلٍ صغير، لم يكن هناك ما يقال ليُلخِّص ما أرادتا قوله، كم افتقدت إحداهن الأخرى، حياة ابنتها السرية، وحياتها الهادئة، خططهن، مشاريعهن، المنزل.

- هل تعلمين المخاطرة التي تقومين بها بمجيئك هنا؟

لم تجب، بالطبع هي تعلم، ولكن كيف تفوّت رؤية ابنتها؟ عندما يكون لديها أبناء في المستقبل ستتفهم الأمر.

- هل يعلم أبي أنكِ هنا؟

- لا، لم يكن ليدعني آتي لرؤيتك.

لم تستطيعا الابتعاد عن بعضهما.

- أنا أفتقدك كثيرًا يا عزيزتي.

- وأنا أفتقدكِ كثيرًا يا أمي.

جلستا على الأريكة لتتابعا حديثهما، تقدمت والدتها في السن كثيرًا, بـدا ذلك واضحًا في سـاقها الممتلئـة والأوردة المنتفخـة فيهـا وعـدم قـدرتها عـلى الوقوف لفترة طويلة, كانت تعاني من الكثـير مـن المشـاكل الصـحية، وتـرى الكثير من الأطباء، وتأخذ أدوية كثيرة مع كل وجبة.

- كيف حالك يا عزيزتي؟

- أنا بخير، سنغادر غدًا، لن نضطر للاختباء بعد اليوم.

- أشعر براحة كبيرة الآن.

- ستأتين لزيارتنا في أقرب فرصة، أليس كذلك؟

- بالطبع سنأتي أنا ووالدك، اتصلي بِنَا وأرسلي الرسائل، وسنكون على متن أول طائرة.

ابتسمت وشعرت براحة كبيرة، فقد تركـت كـل خوفهـا وقلقهـا وتوترهـا وألم الفراق خلفها على تلك الأريكة، وعلى الرغم مـن أنهـا سـتفارق والـدتها فقد كانتْ واثقة من أنها ستراها مجددًا.

قال نائب القنصل:

- لقد انتهى الوقت.

تبادلتا النظرات ببطء، لم تكن مستعدةً للوداع، 15 دقيقة لم تكن كافية، ذهبت إلى الرجل الواقف عند الباب وقالت:

- ما المشكلة إذا بقيت هنا ساعة؟ إنها هنا بالفعل، لن يحدث شيء، نحن لم نرَ بَعضنَا منذ وقت طويل، ولا أعلم متى سنرى بَعضنا مرةً أخرى، لن أجادلك وأقول إننا عائلة ويجب أن أتحدث إليها، ولكنني فقط أريد أن أعرف ما المشكلة في بقائها طالما هي هنا بالفعل؟

لم يتحدث الرجل لبضع ثوانٍ، ثم قال:

- حسنًا سأعود بعد ٤٥ دقيقة، وسأطلب منها المغادرة.

عانقت أمها مرة أخرى وتابعت الحديث معها، وأخبرتنا بكل شيء لم تستطع إخبارها به في الـ ١٥ دقيقة الماضية، وأخبرتها أمها عن شقيقها وشقيقاتها، وعن الأحفاد الجدد، ووالدها وعمله الجديد والتغيرات التي قاموا بإجرائها في المنزل، ومرضها، وعن جولاتها على الشاطئ، واستمتاعها بمشاهدة غروب الشمس في "ليبلون"، وأنها كانت تذهب للتجول كلما سمحت لها صحتها.

هي على النقيض لم يكن لديها العديد من الأخبار، فقط تحدثت عن التوتر والخوف والقلق والأماكن التي اختبأت بها. كانت أمها تعلم أنها أُخذتْ كأسيرة، ولكنها لم ترد أن تعرف التفاصيل، لن تستطيع تحمل معرفة ما حدث لها هناك.

يومًا ما ستقوم بإخبار والدتها بكل شيء، لأنها تظن أن الألم يجب أن يُحكى، لأنَّ الصمتَ خطيرٌ، ستخبرها بكل شيء حدث وهي محتجزة، ولكن ليس اليوم، الآن وقت لم الشمل والوداع، ستنتظر حتى تكون في المنفى، ولكن ليس في كوستاريكا ولكن في البرتغال عندما تأتي والدتها لرؤيتها،

وسيكون لديها كل الوقت لتخبرها بكل شيء وليس وهم تحت مراقبة نائب القنصل؛ الذي أتى ليخبرهم أن وقتهم قد انتهى.

لقد حان وقت الوداع ولكن هذه المرة لن يدوم طويلًا، لأنهما ستتقابلان مرة أخرى قريبًا.





هذا ليس حبًّا، بل خوف.



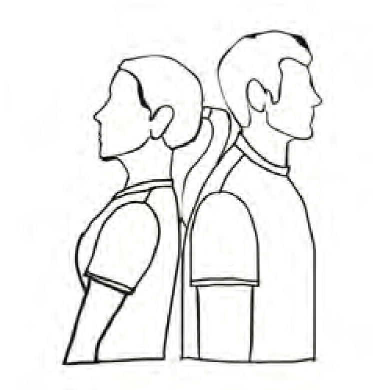
عندما رحلت، كنت أعلم أن هذا سيحدث من البداية، الجميع يعلم ذلك، أن الموت هو أمر حتمي.

ولكن ما كان يخيفني أكثر هو أنه عندما مت، أكدت لي أن الموت يجلس منتظرًا، يراقب كل حركاتنا.

وعندما قرر التحرك كنت أعلم أن الأمر سيكون كَذلِك، ولكنه لم يريحني، بل على العكس جلب لي الخوف والتوتر.



أريد أن أصرخ ولكنني مُكمَّمَة، جسدي مستلقٍ على السرير في صمت في هذه الغرفة الوحيدة الكريهة.



أظن أنني لست الوحيدة التي شعرت برغبة في قتل شخصٍ يومًا ما. أظن أنه على الأقل شعر أحدهم برغبة في رؤية الخوف من الموت في عيون شخص ما. لا أستطيع النوم من التفكير، أنا لم أردك أن تموت، أردت فقط أن أكون الشخص الذي ينهي حياتك، أردت أن أرى نظرة اليأس في عينيك، وأنا على وشك قتلك، كما في الكتب والأفلام، أو كالصحف الرخيصة التي تضع على غلافها أخبارًا عن جرائم قتل عنيفة لجذب القرّاء. كشخص قتل أمه أو زوج قتل زوجته عندما خانته، أردت أن أكون في إحدى هذه الصحف في اليوم التالي، شابة قتلت حبيبها في شجار بعد أن خططت كل شيء، الجريمة والشجار والدافع: "هو من هاجمني وحاول قتلي أولًا".

في بعض الأحيان كنت أتأمَّلكَ وأنت نائم، صوت شخيرك كان يبقيني مستيقظة، وكنت أفكر كيف يكون شعور تمزيق جسد أحدهم، ورؤية دمائه تندفع من جسده، وروحه تخرج من جسده ببطء، وعندما تستيقظ وتسألني:

- ما المشكلة؟

- لا أستطيع النوم.

كنت تعانقني وتقبلني وتعود للنـوم مـرة أخـرى، وأعـود أنـا للتفكـير حتـى الصباح.

لقد ذهبت للبرتغال لأعرف ماضيّ، ولكنني اكتشفت شيئًا آخر.

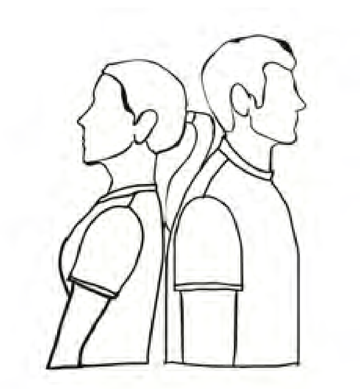
قال لي:

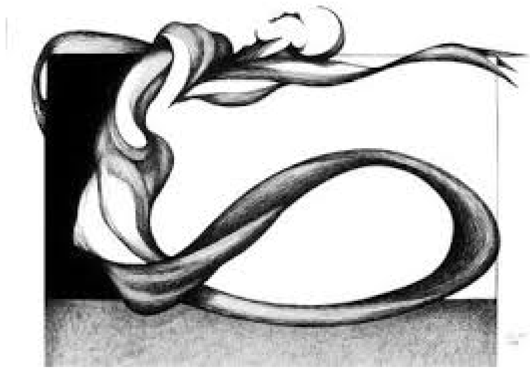
- لا تخافي من الحب.

أخبرني هذا وهو يعلم أنه لا يحبني، ولكنني أستطيع استشعار الحب في الغرفة، أردت الاحتفاظ به للأبد.

لست متأكدة إذا كنت خائفة من الحب يومًا ما، ولكـن الكلمـة لم تكـن أجمل من هذا عندما خرجت منه في هذه الغرفة الكبيرة.

- أنا لست خائفة من الحب.





كم هو جميل وقاسٍ كيف أن الحياة استمرت بعد رحيلك.



كانت ليلة السبت، وكانت الموسيقى صاخبة. كنت أرقص بينما "ليندا سكوت" تغني: "لقد أخبرت كل النجوم الصغيرة". البيرة في يدي والعلب الفارغة على الطاولة.

- الرقص يشبه ممارسة الجنس.

قلت ذلك قبل تشغيل الموسيقى، ولكنك تظاهرت بأنك لم تسمعني لأنك لا تحب الرقص، وغادرت غرفة المعيشة عندما قمت برفع الصوت.

- لا يهم، هناك أشياء أفضل من البيرة، والرقص وحيدًا ليلة السبت، اذهب و افعل شيئا آخر، أنا لا أمانع.

رقصت ولم أفكر في الألم، لم أفكر في أي شيء، فقط أرقص بسعادة.

لم يمـض وقـت طويـل قبـل عودتـك، لم تسـتطع تحمـل الوحـدة عنـدما شعرت بأنني لا أمانع غيابك، عـدت والبـيرة، وسـيجارة في يـد وأسـطوانة في الأخرى، وابتسامتك الساخرة التي لم تغادر وجهك.

أوقفت الموسيقى وقلت:

- سأضع تلك الأغنية التي تحبينها.

راقت لي الفكرة وابتسمت، لم أكن أعلم أي أغنية يقصد.

- الرقص مثل ممارسة الجنس، أليس كذلك؟

ضحكت، كنت مخمورة وسعيدة:

- هل هذا صحيح؟ هل الرقص مثل ممارسة الجنس؟

ضحكت مرة أخرى.

سكبت بيرتك الباردة عليَّ، ثم سمعت الأغنية، أغنيتنا.

"حبيبي أطلق عليَّ النار"، كان لديك تلك النظرة في عينيك، "بانج بـانج"، لقد حـددت هـدفك وأطلقـت، أنـت لم تحـتج إلى مسـدس حتـى، أطلقـت وأطلقـت وأطلقـت، لقـد أصـبتني، لم أسـتطع التحـرك ولا متابعـة الـرقص، وتركتني وحدي مرة أخرى، ولم أعرف السـبب حتـى، اسـتلقيت عـلى الأرض وبكيت حدادًا على موتي.



لم يعرف أي شيء، لم يكن يعرف سبب وجودي في لشبونة.

عندما التقينا كانت حقيبتي لا تزال معـي. لم يعـرف أي شيء عنـي غـير أنني قد وصلت للتو، وأنه لم يكن هناك شيء قبل ذلك أو بعده.

كنت في "برازيليرا"، شربـت القهـوة وقـررت أن أطلـب مـن أحـد المـارة التقاط صورة لي بجانب تمثال "". رأيته مارًا فسألته:

- عذرًا، هل تمانع أن تأخذ صورة لي؟

ابتسم، كما كنت لأفعل لو طلب مني شخص التقاط صورة له أمام "باو دي أسوكار" أو "جبل السكر" في ريو.

لم يقل أي شيء، فقط التقط الصـورة، وأراد التأكـد أنهـا جيـدة، أخـذت الكاميرا وقلت:

- انظر، فقط اضغط هنا.

سألني:

- ما رأيك بها؟

- هل تمانع أخذ صورة أخرى؟

ابتسم ووافق.

دعوته للانضمام لي إن كان لديه وقت، قال:

- بالتأكيد، ولكن لماذا لا نذهب إلى مكان آخر؟

ابتسمت له وقلت:

- حسنًا، لم لا؟ ولكن هل تمانع الذهاب الى مكان قريب؟ حقيبتي معي وهي ثقيلة جدًّا.

واصلنا الابتسام كأننا نفهم بعضنا البعض تمامًا، وكلانا يعرف ما يريده الآخر. "البار" لم يكن قريبًا جدًا، ولكنني لم أضطر لحمل حقيبتي، فقد قام هو بحملها.

لم يكن المكان سياحيًا، لذلك كان مريحًا بعض الشيء.

لم يكن لدينا شيء للحديث عنه، كان بإمكاننا التحدث عن أي شيء، كان لدينا حياتنا بأكملها للحديث عنها، ولكن لا شيء منها بدا مهمًا في هذه اللحظة، طلبنا شيئًا لنشربه، ونظرنا إلى بعضنا البعض في صمت، لم يتخلل هذا الصمت سوى صوت شربنا للبيرة من حين لآخر.

عندما ينمو الصمت دون رادع، يكون أكثر خطورة، وهذا ما حدث بيننا: استمر الصمت في النمو بيننا، وكذلك الخطر، وكأننا لو تحدثنا فسنفسد ما بيننا، كما لو أن كلمة واحدة قد تغير كل شيء.

لم نسمع الناس يصرخون بجانبنا، والناس يدخلون ويخرجون من "البار"، والنساء يضحكن بصوت عالٍ جدًّا، والشاب الذي يجادل النادل لأن شطيرته لم تكن كما أرادها، ولم نسمع النادل يسألنا إذا ما كان كل شيء على ما يرام، أو الكأس الزجاجي عندما سقط من الصينية وتحطم على الأرض.

وكأن العالم من حولنا لم يعد كما هو.

لم نكن نعرف أي شيء عن بعضنا بعضًا ولهذا السبب، لم يكن هناك تواضع، ولا خوف، كانت هناك رغبة فقط، عندما قبلتني للمرة الأولى.





مُنح العفو في أغسطس 1979.

وبعد شهر واحد، نزلت في مطار "جاليون الدولي" مع عشرات المنفيين السياسيين الآخرين، ازدحم المطار بمصورين من معظم الصحف والمجلات في "ريو" هناك لالتقاط صور الواصلين ومِنْ في انتظارهم.

لم تنزعج الطفلة التي كانت تحملها من الحشد، ولم تكن خائفة حتى من عدد الناس الذين أرادوا حملها، بدا كأنها تعرفت على المنزل الذي لم يره من قبل.

عندما صدر قانون العفو، قالت:

- نحن لسنا بحاجة للعودة، نحن بخير هنا في البرتغال، المجلة تحب عملي كمراسلة، وأنت أصبح لديك معارف في الحزب في جميع أنحاء العالم، وابنتنا صغيرة جدًّا، من المبكر جدًا السفر بالطائرة و تغيير البيئة بالنسبة لها.

ولكنه أصرَّ:

- مكاننا هناك حيث أريد أن أصنع الثورة.

وانتهي به الأمر بإقناعها بأن الوقت قد حان للعودة، فهم لم يروا أفراد عائلتهم ولا أصدقاءهم، ولم يأكلوا الخبز بالجبن، ولا شربوا منذ فترة طويلة.

لم يكن حزم الأمتعة سهلًا؛ فقد كانوا في المنفى لخمس سنوات، كان عليهم أن يتخلوا عن الكثير من الأشياء: لوحات، أرائك، الفرن، الثلاجة، والسجاد والكتب والسيراميك، وإرسالها على متن سفينة، وسافرت ملابسهم معهم على الطائرة.

رحلت أولًا مع الطفلة، في حين مكث هو في البرتغال لشهرين آخرين لإتمام بعض الأوراق، والقيام ببعض الالتزامات للحزب.

قبل مغادرتها اتصلت بأقرب أصدقائها لتخبرهم برحيلها، فقد كانت حزينة لترك أصدقائها البرتغاليين، على الرغم من سعادتها بالرحيل لرؤية عائلتها.

كان لديها صديقة مقربة ستفتقدها بشكلٍ خاص، كانتا قد التقتا في ألبانيا في حفل عشاء، بعد أن تبادلتا النظرات، عندما رأتا ذبابة تسقط في حساء الزعيم، وهو يلقي بخطاب حماسي.

كانت تعرف بأنها ستفتقدها بشكل كبير، وكانت حزينة أن بناتهما لن يتربين معًا كما خططا.

زادت سرعة ضربات قلبها، عندما فكرت فيمن سيكون هناك لاستقبالها عندما تصل؟

شعرت أن انتظارها لأمتعتها سيدوم للأبد، على الرغم من أنها كانت تتحدث مع أحد معارفها؛ التي التقت بها عند وصولها.

أرادت الخروج من هناك بسرعة.

بحثت بعينها الزيتونية عن وجه مألوف خلف الحاجز الزجاجي، اندهشت لرؤية والدها واضعًا يده بخفةٍ على الزجاج.

لقد مر وقت طويل جدًّا، كانت لتقول إنه لم يتغير مطلقًا، لولا بعض التجاعيد الظاهرة، وظهره الذي انحنى أكثر من المرة الأخيره التي رأته فيها.

تجمعتِ الدموعُ في أعينهما ولكنهما لم يبكيا، فقط وضعت يدها على الحاجز الزجاجي، كما لو كانت تمسك يده، كما لو أن الزجاج لم يكن موجودًا؛ فقد استطاعا الشعور بحرارة أيديهما.

أشار فجأة إلى حفيدته، وهو يراها للمرة الأولى.

نظرت لوالدها ولابنتها، وفكرت أن قرار عودتها كان أفضل من بقائها.

شعرت بيد تلمس كتفها، وعندما نظرت وجدتها صديقة لها:

- أظن أن حقائبك قد وصلت.

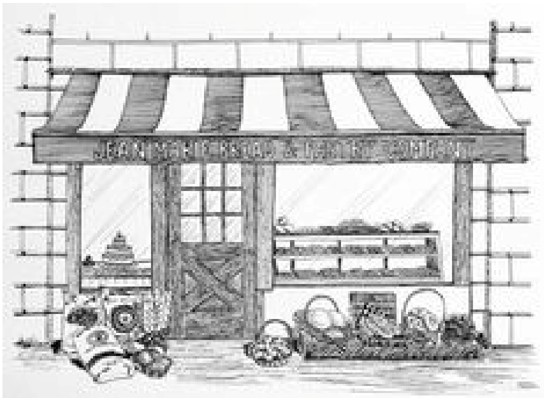
كانت قد فقدت تركيزها عند رؤية والدها.

- حسنًا، سأذهب لألقي نظرة.

ودعتا بعضهما البعض بينما كانت تحمل حقائبها، لم تستطع التفكير في أي شيء آخر، أرادت أن تسرع لتعانق والدها، منزعجة من الضجة التي كانت تنتظرها: الكاميرات، وأصدقاء يريدون معرفة أحوالها، وحملهم لابنتها.

كانت تريد أن تشعر أنها عادت للوطن.





- لن تصدق إلى أين ذهبت اليوم.

- أين؟

- كنت أتنزه في ميدان "روسيو" عندما رأيت اسم "معجنات سويسرا" مكتوبًا بأحرف حمراء كبيرة.

- أنت تمزحين، هل ذهبتِ إلى "معجنات سويسرا؟"

- نعم، لقد اعتدت التحدث كثيرًا عن مخبوزاتهم وحلوياتهم، ولم أنسَ الاسم مطلقًا، لم أصدق أنه أمامي.

في الهواء الطلق رأيت النادل يحمل أطباقًا من المعجنات الشهية.

- كنت أحب الجلوس هناك على واحدة من هذه الطاولات وشرب فنجان من القهوة مع شيء حلو، كنت أتذوق شيئًا مختلفًا في كل مرة.

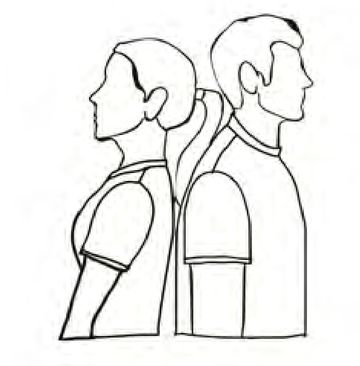
- عندما رأيته تذكرت أن هذا هو المكان الذي تتحدثين عنه كثيراً.

- أتذكر الأمر كما لو كان بالأمس، توفيت جدتك في أكتوبر 1977، وفي يونيو 1978 في صباح ربيعي، كان الميدان مزدحمًا بالناس. كنت متجهة بقلق الى صيدلية "جامعة استاسيو" للحصول على نتيجة اختبار الحمل، وكانت إيجابية، كتب على قطعة الورق أنني حامل، كنت متحمسة وفي مزاج جيد، لم يبدُ الميدان بهذا الجمال من قبل.

ذهبت لأحتفل هناك، وأكلت حتى لم أعد قادرة على الحركة.

- هذا بالضبط ما فعلته، جلست على طاولة في الهواء الطلق، والناس حولي، سُيَّاحًا ومتنزهين، وطلبت قطعتين من المعجنات: واحدة لي وواحدة لك.





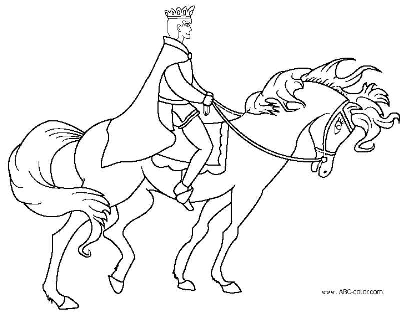
أنا أشك في واقعية ما كان بيننا، هل كان حبًا حقًّا؟ لا أستطيع تحديد ذلك، أشعر أننا مثل شخصيات لمخرج صيني صوَّر الحب باعتباره المستحيل ذاته، في كل مرة أشاهد أفلامه أفكر بنا، في حبنا المستحيل، في حبنا الذي لم ندركه على الرغم من السنوات التي قضيناها معًا.

أتساءل هل كانت الأمور ستجري بشكلٍ مختلف، أم أنَّ جمالَ الأمرِ كان يكمن في استحالة حدوثه.

كل الأوقات التي ضممتك فيها، وشعرت في قلبي بأنك لن تكون لي، في كل مرة كنت أشعر أن المسافة بيننا كانت أقرب إلى الهاوية من كونها مجرد فجوة.

كما لو أنني أحاول الإمساك بيدك، ولكن لم يكن لديك يدين، كما لو أنني أردت أن أخبرك بحبي، ولكن لم يكن لديك أذن.

على الرغم من أننا نعيش تحت سقف واحد، ونتشارك الفراش ذاته، لن نستطيع أن نكون معًا إلا في حالة واحدة: الموت المُلطَّخ بالدم.



- أين حصانك الأبيض؟

- ليس لدي حصان.

- ماذا عن ملابسك التي تشبه ملابس الأمراء؟

- ليس لدي أي منها.

- اسمك الملكي؟

- كلا.

- حسنا، هل لديك باقة من الزهور؟

- لا، ولكنني سأصلح هذا، دقيقة واحدة.

عندما عاد، كان يمسك بباقة من الزهور البرية الملونة، بكلتا يديه وراء ظهره، وقال:

- اختاري واحدة.

- اليسرى.

- خذي هذه لك.

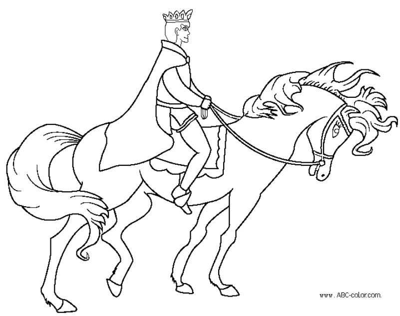
كانت الزهور جميلة.

ابتسمت.

ابتسمت كثيراً.

أخـذ الباقـة مـن يـدي، ووضـعها بعنايـة عـلى الأرض، وقبلنـي، وغادرنـا المكان.

كنا نعلم أننا لسنا خالدين، وأنني لست أميرة، وهو لـيس أمـيري، ولكـن ما حدث للتو ربما يكون حبًا.





أنا أعلم أنك ستفهمني، فقد كنت دائمًا بجانبي، وتعرفني أكثر من أي شخص، لقد مررنا بكل شيء معًا.

إنه دوري الآن لأطمئنك وأخبرك بأن كل شيء سيكون بخير.

- لا تخف!

امتلأت عيناك بالدموع؛ وهو شيء طبيعي الحدوث في لحظات الوداع.

نحن في غرفة النوم، ولا أستطيع التوقف عن النظر إليك، لا أريد نسيان أي شيء، ولكنني أعلم أنني سأنسى يومًا ما، وسأحتاج لصورة لتذكرني بوجهك وأنفك وشعرك، وغيرها من التفاصيل الصغيرة.

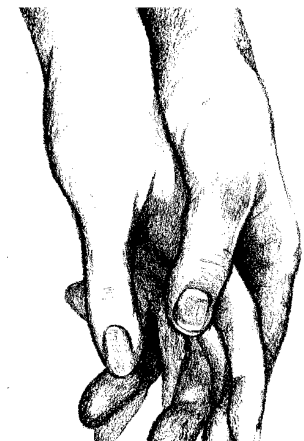
شكرتك للمرة الأخيرة وأخبرتك بأنني لن أنساك، كنت على وشك البكاء أنا أيضًا، ولكنني لم أعد أشعر بالخوف، شعرت براحة بعض الشيء عندما أبعدت يديك عني، قلت:

- انتظر.

أخذت الخاتم من إصبعك ووضعته في إصبعي أنا، وابتسمت أنت موافقًا على ما فعلت.

- سأهتم به، كما اهتممت بي تمامًا.

قلت ذلك ثم ذهبنا للسرير، مررت يدي فوق وجهك للمرة الأخيرة ورفعت الغطاء لأضعه عليك، كالكفن.





لا أعرف عدد أكواب النبيذ التي شربناها، فنحن هنا منذ فترة طويلة، تحدثنا عن أشياء غير مهمة وأشياء مهمة للغاية، لم يكن أحدنا في عجلة من أمره.

سألته:

- إذًا، هل ستأتي للإقامة في "ريو" أم آتي أنا للإقامة في لشبونة؟

ضحكنا كثيرًا كالمراهقين الذين يضعون خططًا لمستقبلهم وهم على علم بأنها لن تتحقق.

قال:

- لنمضي أسبوعًا في كل مدينة، كل أحد سنذهب إلى المطار، بهذه الطريقة لن نضطر للتخلص من أي شيء، وكلانا يبقى في بيته.

- أعتقد أن هذا هو الخيار الأكثر عدلًا.

- والأكثر متعة.

ضحكنا مرة أخرى، وشربنا المزيد من النبيذ، وخططنا للمستقبل.

كنت سعيدة جدًا لدرجة أنني شعرت بألم، لم أكن أعلم أنه يأتي مصاحبًا للسعادة.

قلت:

- أريد أن أتحدث معك.

- حسنًا.

- تعالَ هنا، ما سأقوله هو أمرٌ جدي جدًّا.

جلست بجانبي على الأريكة، وأمسكت يدي، وبدأت أنا بالتحدث، لقد تحدثتُ دون توقف، دون وقفة واحدة:

- أنت تعرف مقدار حبي لك، وأهميتك عندي، وأهمية كل ما علمتني.

لقد وقعت في حبك منذ النظرة الأولى، وتعرف جيدًا أنني لم أكن بهذه السعادة مع أي رجل غيرك، وأنه يمكنك الاعتماد عليَّ في أيَّ وقت، فأنت تملك مكانة خاصة في قلبي، وفي حياتي، لذلك أظن أنك ستتفهم الأمر. بالطبع أنت ستتفهم أنه على الرغم من حبنا فعلاقتنا لا يجب أن تستمر. أعلم أنك تريد الانفصال مثلي تمامًا، وتتفهم أن كلانا يحتاج أن يكون بعيدًا عن الآخر، ليجد سعادته حتى لو لم نكن معًا.

ابتسمت ابتسامة ساخرة مفادها أنك لن تتركني أرحـل، لم تقـل أي شيء آخر، فقط دفعتني على الأريكة، وحاولت إجباري، لقد كنت خائفة ومتعبـة ولم أكن قادرة على الحركة، وأنت تعلم ذلك.

سألتني:

- هل يعجبك هذا؟

لم أجب.

- هل يعجبك هذا؟

لم أجب.

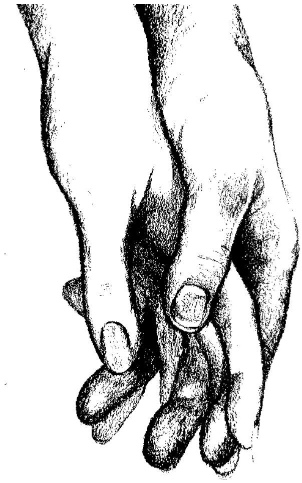
- هل يعجبك هذا؟

أجبتك:

- لا.

أمسكت وجهي بقوة، وقلت:

- لن تكوني أسعد من هذا.



كنا قد أمضينا 4 أيام معًا عندما سألني:

- لما أنتِ هنا؟

كان الوقت مبكرًا، وكنت قد خرجت لشراء الفطور: الخبز والحلويات البرتغالية "بودينج الخبز"، وفطائر "الكاسترد"، والمعجنات. أنا أحبهم كثيرًا لدرجة أنني قادرة على تناولهم على الفطور.

استلقيت على الأريكة، وبدأت في الحديث عن كل شيء: عدم قدرتي على الحركة، جسدي المريض، ومفتاح جدي، وقلت له إنني كنت في تركيا، والآن أنا في البرتغال لمعرفة تفاصيل ماضيّ، وأخبرته بأنني هنا لتسوية حسابات الأجيال السابقة، وتسوية حساباتي الخاصة.

- هل تعلم أنني ولدت هنا في لشبونة؟

- هل هذا صحيح؟

- نعـم، لقـد ولـدت في ينـاير 1979 وذهبـت للبرازيـل في سـبتمبر، ألا تستطيع ملاحظة لكنتي؟

نظر لي نظرة مضحكة، وقال:

- أنت من لشبونة.

- نعم، هل تريد رؤية جواز سفري؟ أعطني حقيبتي رجاءً.

أريته جواز السفر، وصورتي البشعة.

قرأ بصوت عالٍ:

- محل الميلاد لشبونة.

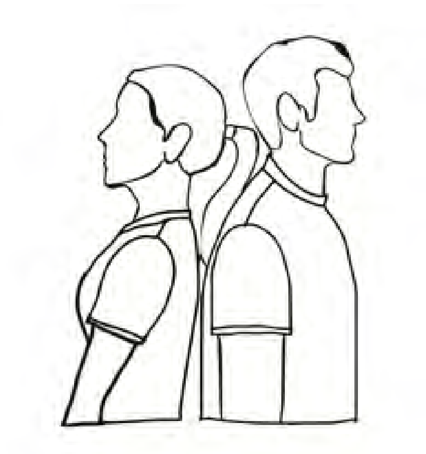
- نعم والآن دعني أكمل قصتي.

أخبرته عن رحلتي لتركيا، والأشخاص الذين قابلتهم، وأخبرته عن الصعوبة التي واجهتها لأغادر سريري عندما كنت في البرازيل، وعن موت أمـي، وأننـي مـا زلـت أتحدث معها، أنا أتحـدث مـع المـوتى المقـربين لي فقـط، وأننـي أحببـت رجـلًا في الماضي، وأنه كان يعنِّفُني ويجرحني، وأريته كل الجروح التي أصابني بها.

- لا أريد أن أقع في الحب مرة أخرى.

اقترب مني واحتضنني، وقال:

- لا تخافي، لم يكن هذا حبًّا.



لقد سمعت شخيرك وأنت نائم، وهذا ما شجعني على فعل ما كنت أقوم بتأجيله، ارتجف جسدي ولكنني لم أتردد، ذهبت للمطبخ بحذر كي لا تستيقظ.

ناديت اسمك لأتأكد أنني لم أوقظك بحركتي، اقتربت منك وتأملتك وأنت نائم، شعرت بسكينة لم أشعر بِهَا وأنا معك وأنت مستيقظ، أنت وسيم جدًّا، كانت بشرتك فاتحة وشعرك بني اللون، شعرت برغبة شديدة بأن أُمسك يدك، ولكنني خفت أن أوقظك.

لقد أمضيت أيامًا أفكر في طبيعة مشاعري تجاهك، هل هو حب؟ كانت الإجابة نعم.

قلبتك على ظهرك، ونظرت إلى وجهك، وقبّلتك للمرة الأخيرة. توقف جسدي عن الارتجاف، وأخذت الغطاء ولففته حولك كالكفن، ثم

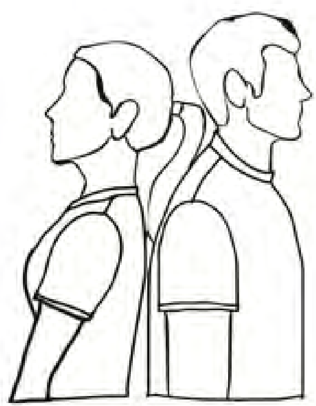
أمسكت السَّكينَ التي أحضرتها من المطبخ وأمسكتها بكلتا يدي وطعنتك بها في بطنك، شعرت بجسدك وهو يتمزق تحت السكين.

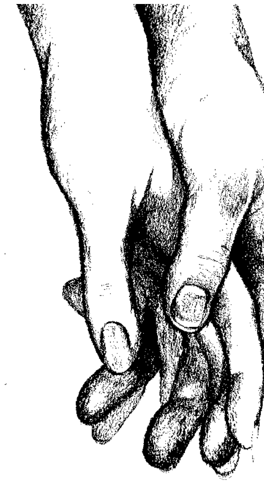
سمعت صراخك، ونظـرت في عينيـك للمـرة الأخـيرة، ورأيـت فـيهما الألم والغضب والخوف.

تركت السكين، ورأيتك تفقد الوعي للأبد.

تأملت الغرفة للمرة الأخيرة، ورأيت أشياءنا، وسريرنا وفوق السرير جسدك، وفي جسدك السكين التي طعنتك بها، ودماءك التي لطَّختِ الغطاء.

شعرت بأنَّ قصةَ حبنا لا تستحق نهايةً غير هذه.





- لا أريد توصيلك للمطار.

- لماذا؟ ألا تحب لحظات الوداع أيضًا؟

- أنا أكره لحظات الوداع، أفضَّل ألا تكون هذه آخر ذكرى تجمعنا على أمل أن نلتقي مجددًا.

- أتظن أننا سنلتقي مجددًا؟

أجاب بثقة:

- بالطبع، سترين.

- حسنًا لا تأتِ معي إلى المطار، ولكن هل يمكنك البقاء معي حتى أغادر؟

لم يجب، ولكنه عانقني عناقًا دام طويلًا.

فكـرة وداعٍ آخـر تزعجنـي كثـيرًا، لقـد جئـت إلى البرتغـال لأنهـي بعـض الأمور، ولكن انتهى بي الأمر بتكوين علاقـات جديـدة، والآن سأضـطر لأودِّع شخصًا مرة أخرى.

لقد كان متأكدًا من أننا سنلتقي مجددًا، حاولت ألا أفكر بالأمر كثيرًا.

قال:

- أنا لا أمانع العيش في "ريو" يومًا ما.

- وأنا لا أمانع العيش في لشبونة، لنتبادل.

- ويمكننا أن نكون، معًا أليس كذلك؟

- بالطبع، هل لديك زجاجة من النبيذ؟

- نعم.

- هل تريد أن تشرب؟

- نعم.

- يمكننا شرب الزجاجة قبل أن أذهب للمطار.

أحضر زجاجتين وأعطاني واحدة، وقال:

- افتحي هذه في البرازيل، وفكري بي وأنتِ تشربينها.

- شكرًا، أنت لطيف جدًّا.

كان هناك شيء مميزٌ في الجو عندما نكون معًا، كأننا نخلـق عالمنـا الخـاص كالأطفال بلا خوف، وهذا ما فعلناه قبل أن أغادر، وشربنا الزجاجتين.

- كيف سأتذكرك وأنا في البرازيل؟ أظن أننا يجب أن نتصل بالتاكسي الآن كي لا أفوّت الطائرة.

أحضر تليفونه ليتصل، وبدأت أنا في ارتداء ملابسي، قال:

- ربع ساعة.

- لماذا؟

- لأن الخدمات في البرتغال تؤدي وظيفتها بدقة وسرعة.

كان لدي وقت كافٍ لأرتدي ملابسي، وأحضر حقائبي، وأودعه وأقول له:

- أنا معجبة بك.

ويرد هو ويقول:

- وأنا معجب بك.

قلت:

- وداعًا، أراك قريبًا.

لم أستطع التوقف عن النظر إليه حتى جاء التاكسي. كنت سعيدة جدًّا ولكنني لم أستطع منع الحزن من تلويث هذه السعادة.

تساءلت لماذا لا تنجح العلاقات دائمًا حتى لو كانت الأمور جيدة؟

وأجبت على نفسي: "توقفي عن التفكير بهذه الطريقة، لقد نجح الأمر".

تذكرت صديقًا لي اعتاد أن يقول: "الحب ليس شيئًا تحتفظين به لنفسك بل هو شيء عَلَيْكِ مشاركته مع الآخرين". وعندما أخبره بتجاربي

كان يقول: "أنتِ لم تولـدي لتحبـي مـرة واحـدة، يجـب عليـك أن تقعـي في الحب أكثر من مرة".

إذا أخبرته بقصتي هذه سيقول: "ألم أقل هذا من قبل، الآن لديك بعـض الحب في لشبونة، وهي مدينة تعني لك الكثير".

كنت غارقة في أفكاري عنـدما سـمعت صـوت تليفـوني ينبهنـي بوصـول رسالة جديدة، رأيت اسمه:

"أظن أنك أكـثر شـخص لطيـف في العـالم، شـكرًا عـلى وجـودك في حيـاتي". بعد قراءة رسالته أستطيع أن أعود الى البرازيل في سلام بعد معرفـة أن علاقتـي مع البرتغال لم تعد جزءًا من الماضي.





دخل جدي الغرفة، وأخذ يتذمَّر من الرائحة القوية، وسألني إذا ما كنت مستعدةً للرحلة.

تسللت أشعة الشمس من الشقوق الموجودة بين الستائر، معلنةً أن الشمس على وشك الغروب، وأن اليوم قد انتهى.

نظرت حولي بينما جدي ما زال يتحدث منتظرًا إجابتي.

ولكنني كنت أفكر، عليَّ أنْ أضع البطانية في غسالة الملابس، وأن أجمع ملابسي من على الأرضية، وأن أنظف العفن الذي انتشر على حائط الغرفة، أشعر بالاشمئزاز من شرنقتي الخاصة.

سألني جدي مـرة أخـرى إذا مـا كنـت مسـتعدة أم لا، لم أجبـه ولكننـي أشرت له أن يأتي ويجلس بجانبي، وللمرة الأولى لاحظت كم تقدم في السـن، لا فرق بين يديه ووجهه؛ كلاهما مليء بالتجاعيد.

أحضرت صندوقًا صغيرًا من على الطاولـة الموضـوعة بجانـب السريـر، وبـداخل الصندوق تذاكر قديمة، وعملات، وأقراط، وغبار، وبين كل هذا: المفتاح.

نظر داخـل الصـندوق ورأى المفتـاح. لم نحـتج لقـول أي شيء. أخرجـت المفتاح من الصندوق، ونفخـت الغبـار عنـه وأمسـكت يـد جـدي ووضـعت المفتاح فيها وأغلقتها.

جلسنا هكذا، المفتاح بين يدينا، يفصل بين قصصنا المختلفة.



صدر من سلسلة كتب مختلفة:

	العنوان	المؤلف	البلد
.1	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.2	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.3	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.5	أيام رائعة	رافاييل مونتيز	البرازيل
.6	منزلنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
.7	نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
.8	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
.9	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
.10	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.11	حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
.12	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.13	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
.14	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
.15	جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
.16	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.17	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.18	حذارٍ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.19	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.20	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.21	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.22	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.23	أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.24	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.25	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.26	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.27	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.28	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
.29	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا

.30 امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.31 توباز	هاكان جنيد	تركيا
.32 ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
.33 جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
.34 جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
.35 خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
.36 ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
.37 الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
.38 الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
.39 لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
.40 مينتا	سولماز كاموران	تركيا
.41 نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
.42 سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
.43 جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
.44 معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
.45 حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
.46 حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
.47 ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
.48 سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
.49 كافكا	فرانز كافكا	التشيك
.50 المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
.51 خريطة آنا	ماريك سينديلكا	التشيك
.52 المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
.53 العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
.54 رسائل سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي
.55 امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
.56 خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
.57 الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
.58 ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
.59 كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
.60 بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
.61 بنات الصين	يي مِاي	الصين
.62 الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين

.63	رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
.64	سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
.65	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
.66	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
.67	الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
.68	المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
.69	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
.70	التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
.71	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
.72	صلوات ليلية	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
.73	صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
.74	القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
.75	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
.76	قصص خيالية	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
.77	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
.78	صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
.79	سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
.80	حرية حزينة	فريدريكا جيزفاينر	النمسا
.81	دكَّان الساري	روبا باجوا	الهند
.82	جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
.83	العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
.84	المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
.85	تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
.86	عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا

صدر من كتب عامَّة:

	العنوان	المؤلف	البلد
.87	الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
.88	قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
.89	هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
.90	المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
.91	الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
.92	الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
.93	الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
.94	القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
.95	مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
.96	زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
.97	يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
.98	خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
.99	ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
.100	أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
.101	قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
.102	النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
.103	لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
.104	جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
.105	الجري	ثور جوتاس	النرويج
.106	عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
.107	اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

108. شرخ في الحائط	كلاوديا بينييرو	الأرجنتين
109. علاقات دولية	إلييت أليكا	ألبانيا
110. الأسئلة	أنطونيو زيرزينسكي	البرازيل
111. شمس الحرية	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
112. في حب بابلو وكراهية إسكوبار	فيرجينا فالاجيو	أسبانيا
113. اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
114. ردًا على خطاب من هيلجا	بيرجيسفين بيرجيسون	أيسلندا
115. الفخ	ليليا سيجورثاردوتير	أيسلندا
116. الحب في زمن الاحتباس الحراري	جوزيف بانيك	التشيك
117. ذكرى سوداء	ألبير كانيجوز	تركيا
118. المزيد	هاكان جونداي	تركيا
119. بال خالٍ	أولجا سلافينكوفا	روسيا
120. يوغوسلافيا وطني	جوران فوجنوفيتش	سلوفينيا
121. جدتي وبريتني سبيرز	لونا الموصلي	سويسرا
122. دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
123. الأخ الأكبر	ماهر جوفين	فرنسا
124. تكوين الملح	ماجيلا بودوين	فنزويلا
125. لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
126. مغامرات دكتور مينجوس	خيسوس ريكاردو فيليكس	المكسيك
127. يوم هنا ويوم هناك	أجيولار كامين	المكسيك
128. روميو جولييت في البلقان	ديان ترايكوسكي	مقدونيا
129. فرق التوقيت	ألموت تينا شميت	النمسا
130. لا سوبيربا	إليا ليونارد	هولندا
131. أفكار سيئة	لويد ميرخام	ويلز

#كتب_مختلفة #البرازيل



في تبادل للحوار بين ابنة وأمها وأبيها وجدها، تدور هذه الرواية الجميلة. وفي لغة هادئة، تقدِّم لنا المؤلفة حياة هؤلاء الأشخاص التي بدأت في إزمير بتركيا، وانتهت بهم في المنفى؛ في البرازيل. تعود الحفيدة إلى تركيا باحثة عن بيت جدها القديم، حاملة معها مفتاحه العتيق، فتحكي لنا عن تجربة السفر والعودة، وتتذكر أمها، وأبيها وجدها. تنتقل الكاتبة بين أمها وجدتها وجدها وتقدم لنا حكاياتهم في شكل رسائل ومذكرات.



تاتيانا سالم ليفي

وُلِدت في "لشبونة" بالبرتغال في يناير عام 1979.
فازت عام 2008 بجائزة "ساو باولو في الأدب" لأفضل كتاب للعام عن روايتها هذه "بيتنا في إزمير". ورُشحت عام 2012 للقائمة القصيرة للجائزة نفسها. كما فازت في العام نفسه بجائزة "جرانتا" والتي تمنح للروائيين البرازيليين الشباب.
وُلدت من عائلة يهودية ذات أصول تركية، هاجرت إلى البرازيل ثم هربت منها إلى البرتغال أثناء الحكم العسكري الديكتاتوري، ثم عادوا إليها مجددًا بعد انتهائه وهي تقيم الآن في "ريو دي جانيرو". درست الأدب بـ"جامعة ريو دي جانيرو الفدرالية" وأيضًا بـ"جامعة ريو دي جانيرو الكاثوليكية البابوية".

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg
9 789773 194680
WWW.alarabipublishing.com.eg
سفر غربة اشتياق العودة حب فراق رحيل
تصميم الغلاف: جورج لطيف